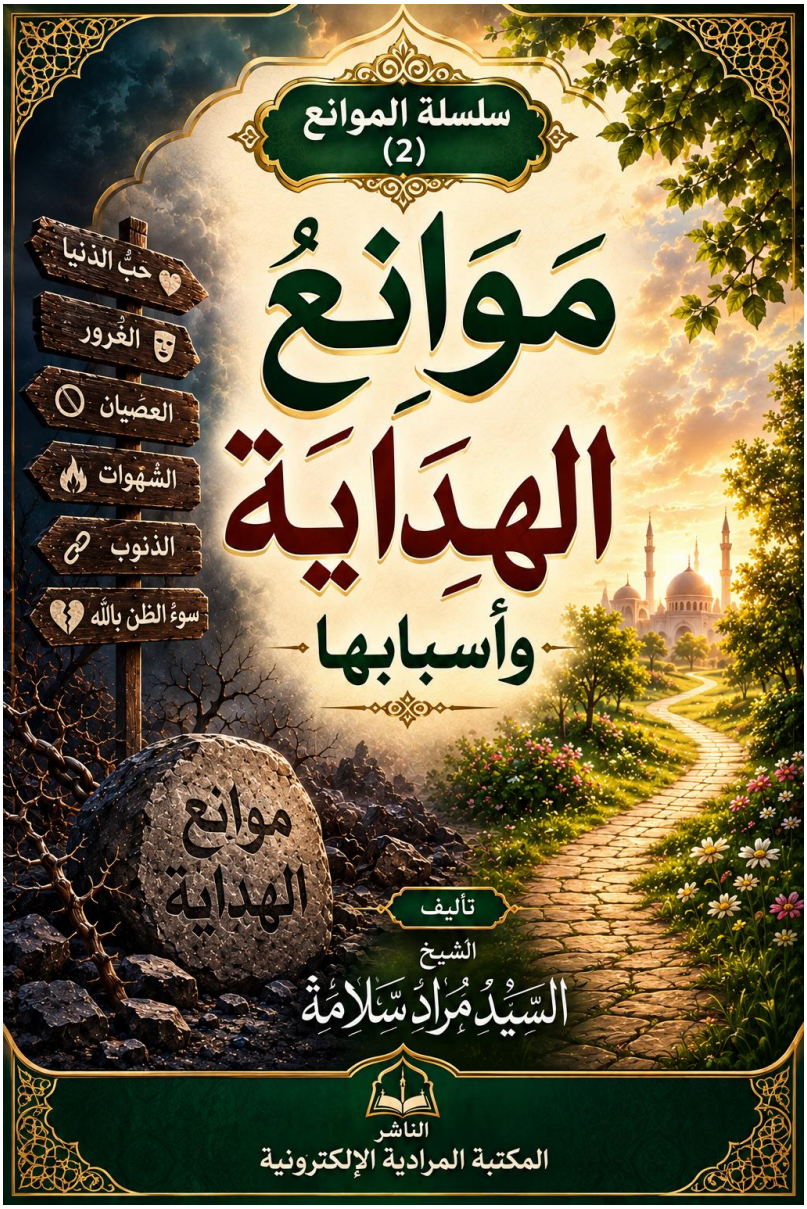
سلسلة الموانع
(2)
مَوَانِعُ
الهِدَايَة
وأسبابها
حبُّ الدنيا
الغُرور
العصيان
الشهوات
الذنوب
سوءُ الظن بالله
موانع
الهداية
تأليف
الشيخ
السَّيِّدُ مُرَادُ سَلَامَةَ
الناشر
المكتبة المرادية الإلكترونية

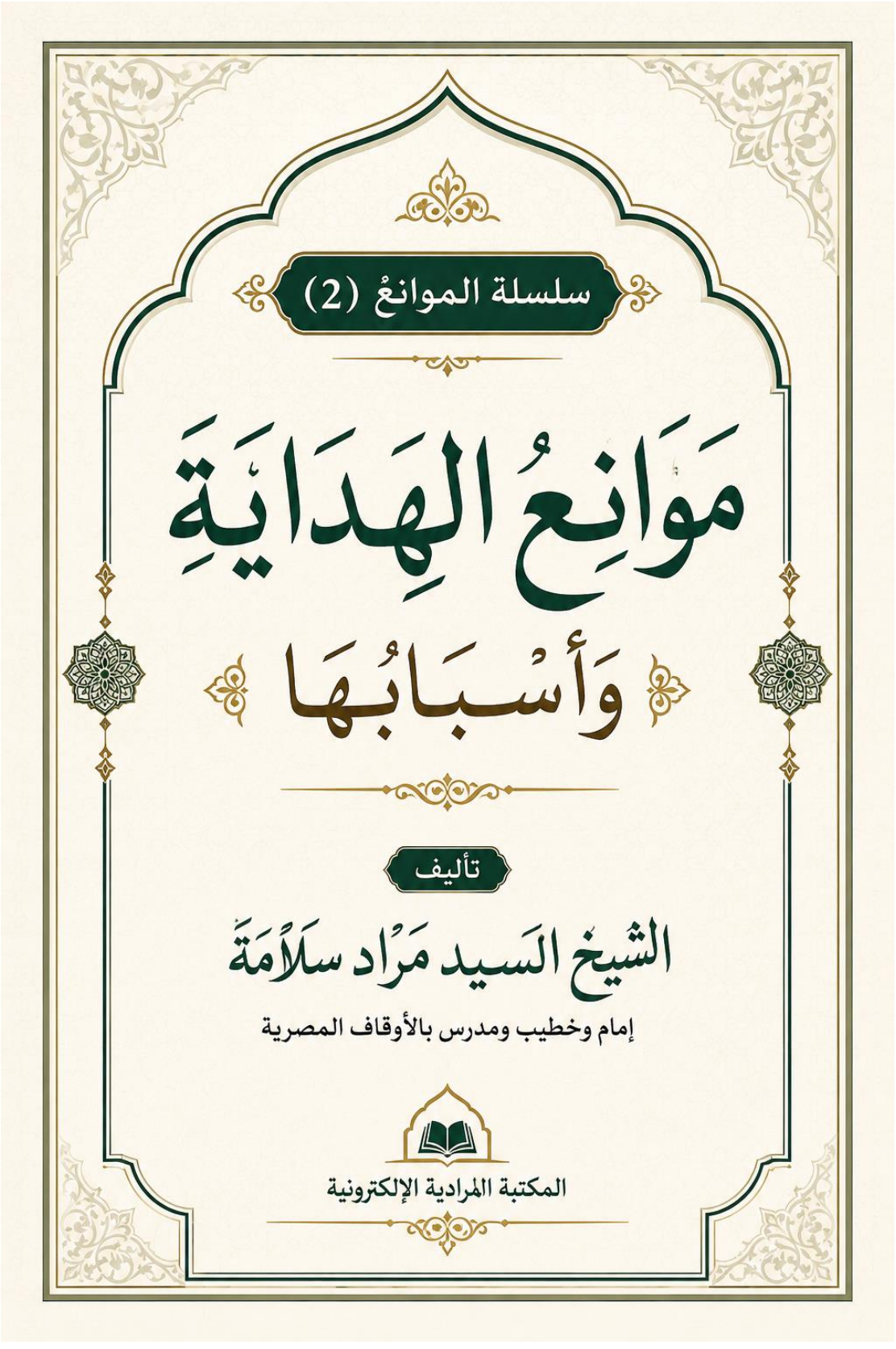
سلسلة الموانعُ (2)
مَوَانِعُ الهِدَايَةِ
وَأَسْبَابُهَا
تأليف
الشيخ السيد مَرَاد سَلَامَة
إمام وخطيب ومدرس بالأوقاف المصرية
المكتبة المرادية الإلكترونية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمة

الحمد لله رب العالمين، الهادي إلى صراطه المستقيم، الذي أنزل الكتاب هدى ورحمة للعالمين، وأرسل رسله مبشرين ومنذرين، وجعل الهداية أعظم نعمة ينالها الإنسان في دنياه وأخراه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، إمام الهدى، وسراج الدجى، الداعي إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ". [آل عمران/ ١٠٢]

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" [النساء/ ١].

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا". [الأحزاب/ ٧٠ - ٧١].

إن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار

... وبعد.....

أخي القارئ الكريم: إن الناظر في أحوال كثير من الناس يجدهم يشتكون ويعانون من أمور شتى، فهذا يبغي السعادة ولكنه لا يستطيع أن يسلك مسالكها ولا يجد طعمها، وآخر يشتكي قلة البركة في الأموال والأولاد والأوقات والأعمار ولكنه لم يقف على أسباب حرمانها ومنعها عنه، وثالث يبكي من الذنوب ويريد أن يتوب ولكن .... و رابع تاه في ضروب الشهوات و زلت قدمه في المحرمات و ضل عن طريق الهداية تر ما هي أسباب الغواية، و خامس يكثر من الدعاء و يجار إلى رب الأرض و السماء و لكن لا يسمع له دعاء لماذا؟ وسادس ركن إلى الدنيا ورضي الجهل والدون ولم تكن له همه علية وغاية سمية ليكون من طلاب العلم ترى ما هي الموانع التي حالت بينه وبين طلب العلم الذي ينال به المرء الرفعة في الدنيا والآخرة ....

لذا أخي الحبيب كان لزاما وأجل مسمى أن نقف مع الموانع التي تحول بين المرء وبين ما يتطلبه الشرع فجاءت هذه السلسلة التي وقفت فيها على الداء و حاولت جهادا أن أصف لها الدواء من كتاب رب الأرض و السماء ومن سنة سيد الأصفياء -ﷺ- و من سيرة العلماء النجباء ....في وسط هذه الحياة التي اشتعلت فيها نار الشهوات و راجت فيها أسواق المحرمات و أصبح للباطل جولة و أضحى كثير من الناس حيارى في ضروب الحياة لأن أهل الباطل قد زينوه و البسوه ثوب الحق فأصبح الباطل عندهم حقا و الحق باطلا و المنكر معروفا و المعروف منكرا و نطق في ذلك الزمان الرويبضة كما اخبر سيد ولد عدنان-ﷺ- و في وسط أمواج الفتن يبحث كثير من الناس عن سبيل الهدية و عن الأسباب التي أوقعتهم في الغواية ، فجاء هذا الكتاب ليأخذ بالأيدي إلى

باب الملك الوهاب و ليبين لهم سبيل النبي الأواب – و سمته{موانع الهداية وأسبابها}

أهمية الموضوع

تنبع أهمية هذا الموضوع من أمور، أهمها:

أن الهداية أعظم نعمة يحتاج إليها الإنسان.

أن الله تعالى أمر عباده بسؤال الهداية في كل ركعة.

أن معرفة موانع الهداية تساعد المسلم على اجتناب أسباب الضلال.

أن كثيرًا من الناس يعرفون الحق ولكن تحول بينهم وبينه موانع نفسية وشهوات وأهواء.

أن القرآن الكريم بيَّن أسباب الهداية وأسباب الحرمان منها.

أن موضوع الهداية يتعلق بحياة الإنسان كلها.

أن الثبات على الهداية لا يقل أهمية عن الوصول إليها.

أن معرفة موانع الهداية من وسائل الوقاية من الانحراف الفكري والسلوكي.

وجاء في عدة فصول:

الفصل الأول: تعريف الهداية: أخي القارئ الكريم: نتعرف في هذا الفصل على تعريف الهداية لغة واصطلاحا، ثم ذكرت أنواع الهدية وبينت أنها منة من الله سبحانه وتعالى فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء فمن شاء أقامه ومن شاء أزاغه.

الفصل الثاني من الهادي وما أنواع الهداية؟

أخي القارئ سنتعرف معا في هذا الفصل على أنواع الهدية وبيان حقيقة كل نوع منها.

الفصل الثالث الهداية إلى الصراط المستقيم وصفة الصراط: وفي هذا الفصل سنتعرف على الهداية إلى الصراط المستقيم و سنتعرف على صفة ذلك الصراط الذي ينبغي علينا سلوكه.....

الفصل الرابع: موانع الهداية: أخي القاري الكريم – و في هذا الفصل بيت للقاري موانع الهداية كما جاءت في القرآن الكريم و سنة النبي الأمين –ﷺ– تلك الموانع التي تصد العبد عن طريق الحق و تجعله يتخبط في ظلمات الضلال و أصبح حاله كما قال –جل ذكره -{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٧١]

الفصل الخامس: أسباب الهداية: أخي القارئ الكريم–وها أنا أضع بين يديك سبل الهداية و الرشاد من أخذ بها نجا و اهتدى و سار في ركب الثلة المباركة التي قال الله عنها {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠]

الفصل السادس: وقفات إيمانية على طريق الهداية :و في هذا الفصل نقف مع مسك الختام مع وقفات لابد لسالك طريق الهداية من التعرف عليها.

أبو همام/ السيد مراد سلامة

إمام وخطيب ومدرس بوزارة الأوقاف المصرية

جمهورية مصر العربية –محافظة البحيرة –قرية فرنوى

الفصل الأول: تعريف الهداية

أخي المسلم :إنَّ أعظمَ ما مُنحَ به الإنسانُ في هذه الحياة، وأجلَّ نِعمِ الخالقِ سبحانه وتعالى على عباده، هي نِعمةُ الهداية؛ فالقُلوبُ بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والعقولُ لولا نور الوحي لتخبطت في ظلمات الحيرة والضلال.

ولما كانت السعادةُ الدنيوية والفلاحُ الأُخروي منوطين بالاهتداء إلى الصراط المستقيم، كان لزاماً على طالب الحق أن يقف متأملًا متدبراً في معنى هذا اللفظ الجليل، ليدرك مراميه، ويعرف طرقه، ويسأل ربه الثبات عليه.

وفيما يلي بيانٌ لمفهوم الهداية، وجلاءٌ لحقيقتها لغةً واصطلاحـًا، وما يتصل بذلك من معانٍ نافعةٍ لطالب العلم والمريد للحق.

تعريف الهداية واشتقاقها:

والهِدَايَةُ؛ في اللغة : الإرشادُ ، لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسِّرون بغير لفظ الإرشاد وكلها إذا تأملت راجِعةٌ إلى الإرشاد ، فالهدى يجيء بمعنى خَلْقِ الإيمان في القلب ، ومنه قوله تعالى : { أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ } [البقرة : ٥] و { يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ } [النور : ٤٦]، و { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ } [القصص : ٥٦] { فَمَن يُرِدِ الله أَنْ

يَهْدِيَهُ } [الأنعام : ١٢٥] الآية ، قال أبو المعالي : فهذه الآيات لا يتجه جلها إلا على خلق الإيمان في القلب ، وهو محض الإرشاد.

وقد جاء الهدى بمعنى الدعاء؛ كقوله تعالى: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد: ٧] أي : داع { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ } [الشورى : ٥٢] .

وقد جاء الهدى بمعنى الإلهام؛ من ذلك قوله تعالى: {أعطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى} [طه: ٥٠].

قال المفسِّرون: ألهم الحيواناتِ كلَّها إِلى منافعها.

وقد جاء الهدى بمعنى البيان؛ من ذلك قوله تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم} [فصلت: ١٧] قال المفسِّرون: معناه: بيَّنَّا لهم.

قال أبو المعالي: معناه: دعوناهُمْ، وقوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا للهدى} [الليل: ١٢]، أي : علينا أنْ نبيِّن .

وفي هذا كله معنى الإرشاد.

قال أبو المعالي: وقد ترد الهدايةُ، والمراد بها إِرشاد المؤمنين إِلى مسالك الجِنَانِ والطرقِ المفضيةِ إِلَيْهَا؛ كقوله تعالى في صفة المجاهدين: {فَلَنْ يُضِلَّ أعمالهم سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [محمد: ٤-٥]

ومنه قوله تعالى: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [الصافات: ٢٣]، معناه : فاسلكوهم إِليها .

قال: وهذه الهدايةُ بعينها هي التي تقال في طرق الدنيا، وهي ضدُّ الضلالِ، وهي الواقعة في قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦] على صحيح التأويلات[١]

الهداية تأتى بمعنى الإرشاد ((يقال هدى فلانا: أرشده ودله وفى التنزيل ووجدك ضالا فهدى؛ وهدى فلانا الطريق عرفه وبينه له ومنه وهديناه النجدين واستهدى فلان أي طلب الهداية واستهدى فلانا أي طلب منه الهداية

والهدى: الدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب.)) [٢]

((ومن معاني الهداية الإلهام وفى التنزيل ((والذي قدر فهدى)) أي قدر الأشياء ثم هدى الخلائق إلى طلبها كطلب الغذاء)) [٣]

((وقد تأتى بمعنى الثبات فالعرب تقول للقائم قم حتى أتيك أي: اثبت على حالك وقد يدل سؤال الهداية على سؤال لزومها فيكون التقدير اهدنا لزوم الصراط قاله ابن الأنبارى)).

وفيما سبق جواب على من سأل فقال كيف يسأل المسلم ربه الهداية وهو مهتد لأن سؤال الهداية يشمل هداية الإرشاد والتوفيق والثبات فيكون المقصود ثبتنا

---

[١] – تفسير الثعالبي –(ج ١ / ص ٣).

[٢] – المعجم الوسيط (ص: ١٠١٩).

[٣] – محاضرات الشيخ الجزائري.

على تلك الهداية ((ولا مانع أن يكون المقصود طلب الهداية والمراد المزيد منها لأن الألطاف والهدايات من الله لا تتناهى على مذهب أهل السنة)) ([1])

قلت: إن العبد عاجز عن معرفة طريق الحق بحوله وقوته وإذا عرفه فعاجز عن التوفيق لذلك وإذا وفق فعاجز عن الثبات عليه ولزومه فالعبد يسأل ربه الهداية في كل حال إذ هو لا يملك نفسه وقلبه فقد يسلب إيمانه من حيث لا يشعر وكثير ما هم ثبتنا الله وإياكم على الصراط المستقيم.

حقيقة الهداية يقول ابن عاشور-رحمه الله – {والهداية حقيقتها إبانة الطريق، وتطلق على مطلق الإرشاد لما فيه النفع سواء اهتدى المهْدي إلى ما هُدي إليه أم لم يهتد، قال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: ٣] وقال: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت : ١٧] .

الهداية ليست كلمةٌ تقال، بل هي حقيقةٌ ذات تكاليف، وأمانةٌ ذات أعباء، وجهادٌ يحتاج إلى صبر، وجهدٌ يحتاج إلى احتمال، وما حقيقةٌ كخيال.

الهداية على الحقيقة لا الخيال عبوديةٌ مطلقةٌ لله رب العالمين، والعبد المطلق كما يقول ابن القيم في كلامٍ قيم مضمونه في تصرف([2]): لا تملكه رسوم، ولا تقيده قيود، عمله على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه في سواه، ملبسه ما تهيأ، مأكله ما تيسر، شغله ما أمر به في وقته، مجلسه حيث انتهى وخالياً وجد، لا

[1] – زاد المسير (/ ج١ ص١٤).

[2] – مدارج السالكين (ج ١ ص٩٠).

تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حرٌ مجردٌ، دائرٌ مع الأمر المأمور به حيث دار، يأنس به كل محب، ويستوحش منه كل مبطل؛ كالغيث حيثما وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعةٌ حتى شوكها، حزمٌ مع المخالفين لأمر الله، غضبٌ إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله، ومع الله، واهٍ له ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته! وما أعظم أنسه بالله وفرحه وطمأنينته وسكونه، والله المستعان! وعليه التكلان، ما حقيقةٌ كخيال.

هذا دأب المهتدي حقيقةً في السير إلى الله، كلما رفعت له منزلة سار إليها واشتغل بها، حتى تلوح له منزلةٌ أخرى، ولم يزل هذا دأبه حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته بذاته معهم، وفي سمتهم وعلمهم وزيهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين والمحسنين رأيته معهم، وإن رأيت العاكفين الخاشعين المخبتين رأيته معهم:

كالليث يسرف في الفعال وليس يسرف في الزئير.

هداية الحقيقة تمثيلٌ للدين في تصريف شئون الحياة، واستخلافٌ للمهتدين في الأرض، وتبديل للخوف بالأمن، وعدٌ واقعٌ ماله من دافع، إنه وعد الله، ووعد الله حق، ولن يخلف الله وعده، قال الله: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي

شَيْئًا } [النور:٥٥] وعدٌ من الله للعصبة المهتدية في كل عصر، وسنةٌ من الله: { وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } [الفتح:٢٣].

إذا لم يكن الغيث هامياً؛ فلا ترج أن يكون النبت ناميا؛ فما حقيقةٌ كخيال، وما آلٌ كبلال.

امتنان المولى – سبحانه على عباده بالهداية:

واعلم -بارك الله فيك -: أن من أعظم المنن الربانية على عبد من عباده أن يهديه إلى الصراط المستقيم {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف:١٧٨]

قال تعالى مبينا أنه المنفرد بالهداية والإضلال: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ} بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم {فَهُوَ الْمُهْتَدِي} حقا لأنه آثر هدايته تعالى، {وَمَنْ يُضْلِلِ} فيخذله ولا يوفقه للخير {فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

{وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً} [الإسراء: ٩٧].

أتم نعمةٍ يمتن بها الله على العبد: {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات:١٧][1]

[1] – تفسير السعدي –(ج ١ / ص ٣٠٨).

يقول الرازي – رحمه الله – وفيه لطائف الأولى : في قوله تعالى : { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ } زيادة بيان لقبيح فعلهم ، وذلك لأن الإيمان له شرفان أحدهما : بالنسبة إلى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده في العظمة ، وثانيهما : بالنسبة إلى المؤمن فإنه ينزه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق ، فهم لا يطلبون بإسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم بل منوا ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا .

اللطيفة الثانية: قال: {قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إسلامكم} أي الذي عندكم إسلام، ولهذا قال تعالى: {ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا} ولم يقل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم لئلا يكون تصديقـًا لهم في الإسلام أيضـًا كما لم يصدقوا في الإيمان، فإن قيل لم لم يجز أن يصدقوا في إسلامهم، والإسلام هو الانقياد، وقد وجد منهم قولاً وفعلاً وإن لم يوجد اعتقاداً وعلمـًا وذلك القدر كاف في صدقهم؟

نقول: التكذيب يقع على وجهين:

أحدهما: أن لا يوجد نفس المخبر عنه.

وثانيهما: أن لا يوجد كما أخبر في نفسه فقد يقول ما جئتنا بل جاءت بك الحاجة، فالله تعالى كذبهم في قولهم آمنا على الوجه الأول، أي: ما آمنتم أصلاً ولم يصدقوا في الإسلام على الوجه الثاني، فإنهم انقادوا للحاجة وأخذ الصدقة.

اللطيفة الثالثة: قال: {بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ} يعني لا منة لكم ومع ذلك لا تسلمون رأساً برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة، بل المنة عليكم، وقوله تعالى: {بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ} حسن أدب حيث لم يقل لا تمنوا علي بل لي المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم، ثم في مقابلة هذا الأدب قال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢].

اللطيفة الرابعة: لم يقل يمن عليكم أن أسلمتم بل قال: {أَنْ هَداكُمْ للإيمان} لأن إسلامهم كان ضلالاً حيث كان نفاقاً فما منّ به عليهم، فإن قيل كيف من عليهم بالهداية إلى الإيمان مع أنه بيّن أنهم لم يؤمنوا؟

نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه تعالى لم يقل: بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمان، بل قال: { أَنْ هَداكُمْ للإيمان } وإرسال الرسل بالآيات البينات هداية.

ثانيها: هو أنه تعالى يمن عليهم بما زعموا، فكأنه قال أنتم قلتم آمنا، فذلك نعمة في حقكم حيث تخلصتم من النار، فقال هداكم في زعمكم.

ثالثها: وهو الأصح، هو أن الله تعالى بيّن بعد ذلك شرطاً فقال: **{إِن كُنتُمْ صادقين}**.

إشارة إلى أنه لا يخفى عليه أسراركم، وأعمال قلوبكم الخفية، وقال: {بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة (١)

إنها حصن الله الحصين، من دخله كان من الآمنين، وهي الباب العظيم الذي من ولجه كان إلى الله من الواصلين، نوره يسعى بين يديه وبأيمانه إذا أطفئت أنوار المبتدعة والمنافقين، قال الله: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام:١٢٢].

******

١ – تفسير الرازي –(ج ١٤ / ص ٢٠٠).

الفصل الثاني :من الهادي وما أنواع الهداية؟

لَمَّا كان مفهومُ الهداية هو الغايةَ العظمى والمطلبَ الأسمى الذي يسعى إليه كلُّ قلبٍ مؤمن، تبيَّن أنَّ هذه النعمة الجليلة ليست درجةً واحدةً ولا باباً واحداً، بل تتفاوت مراتبها وتتعدد أنواعها بحسب تعلقها بالقلوب والأفعال، وبحسب ما خصَّ الله سبحانه وتعالى به عباده من توفيقٍ وتسديد.

وقد دلَّت النصوص الشرعية وعلم هداة الدِّين على أنَّ الهداية في أصلها مردها إلى الله وحده، غيرَ أنَّ لها مسالك ومظاهر تختلف باختلاف الغاية والمراد؛ فمنها ما هو تعريفٌ وإرشادٌ عامٌ للخلق أجمعين، ومنها ما هو توفيقٌ وإلهامٌ خاصٌّ لأهل الإيمان واليقين.

وفيما يأتي بيانٌ لأنواع الهداية وتفصيلٌ لمظاهرها، لِيُجلِيَ للناظر فيها حقيقةَ افتقاره الدائم إلى خالقه جلَّ وعلا.

الهداية بيد الله: واعلم أن الهداية على الله تعالى موقوفة وعن باب غيره مصروفة يأتي الله عز وجل برجال من أطراف الدنيا فيسلمون ويؤمنون، ويأبى الذين بين الركن والحطيم وعند زمزم أن يسلموا فتأمل كيف آمن بلال الحبشي – رضي الله عنه وكفر أبو طالب الهاشمي وكيف ساق الله سليمان فورد على باب الملك الديان و كفر أبو لهب برسالة النبي العدنان؟! {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:٥٦]

ويقول السعدي – رحمه الله -يخبر تعالى أنك يا محمد -وغيرك من باب أولى-لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد اللّه سبحانه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل، فحاشا وكلا، ولهذا، لو كان قادرا عليها، لهدى من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد اللّه تعالى. (١)

يقول عائض القرني – حفظه الرب العلي – و تأمل عبد الله :أتى الله بـ أبي هريرة من بلاد دوس من زهران ليكون أكبر راوية في الإسلام، وأتى بـ سلمان من أرض فارس ليكون حامل رسالة نداء الأرض إلى السماء، وأتى بـ بلال من أرض الحبشة لتستفيق على أذانه الدنيا، وأتى بـ صهيب الرومي ليكون سفير الإسلام إلى الروم، وأتى بـ خباب بن الأرت ليكون موجهـًا من أكبر سادات

---

١ – تفسير السعدي – (ج ١ / ص ٦٢٠).

الصحابة، وأتى بـ ابن مسعود راعيـًا من رعاة الغنم في هذيل ليكون من أكبر علماء الدنيا ومن أذكياء العالم الذين أنصتت لهم أذن الدهر.

ولكنْ أبو طالب الذي تبجح بكبريائه ما أسلم، وأبو لهب الذي التهب رأسه بالغباء ما آمن، والوليد بن المغيرة الذي كان يكسر الذهب بالفئوس ما انقاد للرسالة، سبحان الله! {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتـًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام:١٢٢].

انفراد الله تعالى بالهداية: واختص سبحانه وتعالى بالهداية، لا يملك أحد أن يهدي أحداً، وهذا أمر معلوم؛ فبعض الناس لو استمع ألف محاضرة ما اهتدى، وبعض الناس يسمع القرآن من أوله إلى آخره، ولا يغير في حياته مثقال ذرة، وبعض الناس لو انتطحت الجبال بين عينيه فلن يهتدي، بل دفن بعضهم أبناءه بيده في القبر، وسمع ذكراً للموت، وآتاه الله من الوعظ ما الله به عليم، ومع ذلك يترك الصلاة !!

يقول سبحانه: {أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [يونس:٣٥] أسلوب عجيب، إنني أقف عاجزاً أمام هذه الآيات، فقد فسدت لغتنا فلا نتذوق القرآن.

يقول تعالى: {أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [يونس:٣٥].

يقول أبو السعود – رحمه الله – في قوله {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)} .

{قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ} احتجاجٌ آخرُ على ما ذكر جيء به إلزاماً لهم غِبَّ إلزامٍ وإفحاماً إثرَ إفحام وفصلُه عما قبله لما ذُكر من الدلالة على استقلاله {مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} أي بوجه من الوجوه فإن أدنى مراتبِ المعبودية هدايةُ المعبودِ لعبَدته إلى ما فيه صلاحُ أمرِهم وأما تعيينُ طريقِ الهدايةِ وتخصيصُه بنصب الحجج وإرسالِ الرسلِ والتوفيقِ للنظر والتدبر كما قيل فمُخِلٌّ بما يقتضيه المقام من كمال التبكيتِ والإلزامِ فإن العجزَ عن الهداية على وجه خاصَ لا يستلزم العجزَ عن مطلق الهدايةِ.

وهدى كما يُستعمل بكلمة إلى لتضمّنه معنى الانتهاءِ يُستعمل باللام للدلالة على أن المنتهى غايةُ الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استُعمل بها ما أسند إلى الله تعالى حيث قيل : { قُلِ الله يَهْدِى لِلْحَقّ } أي هو يهدي له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الأدلةِ والحججِ وإرسالِ الرسل وإنزال الكتبِ والتوفيقِ للنظر والتدبر وغيرِ ذلك من فنون الهداياتِ ، والكلامُ في الأمر بالسؤال والجوابِ كما مر فيما مر { أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الحق } وهو الله عز وجل { أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّى ....أي لا يهتدي بنفسه فضلاً عن هداية غيرِه ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى وإنما نُفي عنه الاهتداءُ مع أن المفهومَ مما

سبق نفيُ الهدايةِ لما أن نفيَها مستتبعٌ لنفيه غالبـًا فإن من اهتدى إلى الحق لا يخلو عن هداية غيرِه في الجملة وأدناها كونُه قدوةً له بأن يراه فيسلُكَ مسلَكَه من حيث لا يدري ، والفاءُ لترتيب الاستفهامِ على ما سبق من تحقق هدايتِه تعالى صريحـًا وعدمِ هدايةِ شركائِهم المفهومِ من القصر ومن عدم الجوابِ المنبىء عن الجواب بالعدم فإن ذلك مما يَضطرهم إلى الجواب الحقِّ لا لتوجُّبِه الاستفهامَ إلى الترتيب كما يقع في بعض المواقعِ فإن ذلك مختصٌّ بالإنكاري كما في قوله تعالى : { أَفَمَنِ اتبع رضوان الله } الخ ونحوه ، والهمزةُ متأخرةٌ في الاعتبار وإنما تقديمُها في الذكر لإظهار عراقتِها في اقتضاء الصدارةِ كما هو رأيُ الجمهورِ حتى لو كان السؤالُ بكلمة أي لأُخِّرت حتمـًا ، ألا يُرى إلى قوله تعالى : { فَأَىُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن } إثرَ تقديرِ ما يُلجىء المشركين إلى الجواب من حالهم وحالِ رسول الله -ﷺ- وقرىء لا يهدي بمعنى لا يهتدي لمجيئه لازمـًا أو لا يهدي غيرَه ، وصيغةُ التفضيلِ إما على حقيقتها والمفضلُ عليه محذوف كما اختاره مكي والتقدير أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع ممن لا يهدي أم من لا يهدي أحق الخ)[1]

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد -ﷺ- :(قل) ، يا محمد لهؤلاء المشركين (هل من شركائكم) ، الذين تدعون من دون الله، وذلك آلهتهم

[1] – تفسير أبي السعود –(ج ٣ / ص ٢٦٤).

وأوثانُهم،(من يهدي إلى الحق) يقول: من يرشد ضالا من ضلالته إلى قصد السبيل، ويسدِّد جائرًا عن الهدى إلى واضح الطريق المستقيم؟

فإنهم لا يقدرون أن يدَّعوا أن آلهتهم وأوثانهم تُرشد ضالا أو تهدي جائرًا. وذلك أنهم إن ادَّعوا ذلك لها أكذبتهم المشاهدة، وأبان عجزَها عن ذلك الاختبارُ بالمعاينة. فإذا قالوا "لا" وأقرُّوا بذلك، فقل لهم.

فالله يهدي الضالَّ عن الهدى إلى الحق (أفمن يهدي) أيها القوم ضالا إلى الحقّ، وجائرًا عن الرشد إلى الرشد (أحق أن يتبع)، إلى ما يدعو إليه(**أَمْ مَنْ لا يهدِّي إِلا أن يُهدى)؟**)([1])

الهداية عامة وخاصة:

واعلم علمني الله وإياك: أن الهدية تنقسم إلى هداية عامة، وهداية خاصة

أولاً: الهداية عامة وخاصة:

فأما الهداية العامة فهي هداية الخلق للخليقة: أن يهدي الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى كل مخلوق لما يريده ويحتاجه، فهدى الطفل لثدي أمه، والنملة إلى جحرها، والنحلة إلى خليتها، والطائر أن يأخذ رزقه، والثعبان أن يعيش، والسمك ألا يخرج من الماء، وهدى كل شيء، ولذلك احتج موسى ودمغ فرعون بهذه

[1] – تفسير الطبري –(ج ١٥ / ص ٨٦).

الكلمة: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)} [طه: ٤٩-٥٠].

يقول السعدي – رحمه الله – {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)} [طه: ٤٩-٥٠].

أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: { فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى } فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح، فقال: { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، { ثُمَّ هَدَى } كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن به على ذلك.

وهذا كقوله تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [السجدة: ٧] فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر من الأمور

المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة....(١)،

والهداية الخاصة: هداية المؤمنين، وهي الهداية إلى الصراط المستقيم: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة:٦] الذي من معالمه: أنه موصل وقريب ومتعين ومسلوك، وله إمام وهو الذي نطالب الله بلهفة وحرارة في كل ركعة أن يهدينا الصراط المستقيم

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام بعد أن ذكر كوكبة مباركة من الأنبياء و الرسل {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٨٨-٩٠]

عن أبي إسحاقَ، عن البراءِ رضي الله عنه قالَ: كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَنْقُلُ مَعَهم التُّرَابَ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَهُوَ يَقُولُ رَجَزٌ :

اللَّهمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وثَبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقَيْنا

---

١ – تفسير السعدي –(ج ١ / ص ٥٠٦).

إِنَّ الأُلَى قَدْ بغوا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قالَ : وَرَفْعُ صَوْتَهُ بأَبَيْنَا. (١)

وقد قسّم ابن رجب الناس إلى ثلاثة أقسام: فقال ':الأقسام ثلاثة: راشد، وغاو، وضال ؛ فالراشد عرف الحق واتبعه، والغاوي عرفه ولم يتبعه، والضال لم يعرفه بالكلية؛ فكلُّ راشدٍ هو مهتد، وكل مهتدٍ هدايةً تامة فهو راشد؛ لأن الهداية إنما تتم بمعرفة الحق والعمل به أيضًا' اهـ.

وقد وصَف الله أتباع إبليس بأنهم من الغاوين، فقال: { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }[٤٢][سورة الحجر.]

ووصَف الله الذي أوتيَ الآيات فردّها بأنه من الغاوين، فقال: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ[١٧٥]وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[١٧٦]}[سورة الأعراف] .

فدلّ هذا على أن الهداية نعمة لا تحصل بتمامها إلا بفعل الأسباب ، وقد قال تعالى: { كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٨٦][سورة آل عمران]

---

١ –أخرجه الدارمي (٢٤٥٥)، والبخاري (٢٨٣٦) و (٢٨٣٧) و (٤١٠٤) و (٧٢٣٦)، ومسلم (١٨٠٣) (١٢٥)، والنسائي في "الكبرى" (٨٨٥٧)، وابن حبان (٤٥٣٥).

قال بعض العلماء في تفسير الآية:' أي أنه لا يهديهم ؛ لأن القـوم عرفـوا الحق وشهدوا به وتيقّنوه وكفـروا عمـداً، فمن أين تأتيهم الهداية ؟

فإن الذي تُرتجى هدايته من كان ضالا ولا يدري أنه ضال، بل يظن أنه على هدى فإذا عرف الهدى اهتدى، وأما من عرف الحق وتيقنه وشهد به قلبه، ثم اختار الكفر والضلال عليه، فكيف يهدي اللهُ مثل هذا؟. '!

الآية الأولى: قوله جل وعلا {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [محمد: ٤-٥]

ففيها بيان أن المقتول في سبيل الله عز وجل سيهديه الله وسيصلح باله، وفي هذا دلالة ظاهرة أن الهداية تكون بعد الممات أو تكون بعد مفارقة الدنيا، فبحق الذين قتلوا في سبيل الله فهم سيُهدون، بعد تركهم لهذه الدنيا سيهديهم الله جل وعلا، وكذلك الذين ماتوا إذا كانوا على الإيمان سيهدون وسيصلح الله بالهم وسيدخلهم الجنة.

في هذا قال العلماء: إن الهداية التي جاءت في القرآن أربعة أنواع:

النوع الأول الهداية الغريزية:

وهي المذكورة في قوله تعالى {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه:٥٠]، فهذه هداية جعلها الله جل وعلا رحمة منه لكل مخلوق، كل مخلوق هداه {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}، هداه لما يصلحه، هداه لما قدر الله جل وعلا له في حياته.

سماها العلماء الهداية الغريزية، هذه هداية طبعية؛ طبع عليها الخلق.

النوع الثاني من الهداية: هداية الدلالة والبيان والإرشاد: فإن الله جل وعلا هدى الخلق، وأقام لهم البينات الواضحة التي لا يلتبس معها النظر ولا السلوك لذي العقل ولذي اللب، فأرشد جل وعلا وبين وهدى وعلم ودلّ، وذلك بإنزال كتبه وبإرسال الرسل.

إنزال الكتب لإقامة الحجة على العباد ولهدايته {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ} [المائدة١٦].

كذلك الرسل يهدون إلى ما أمرهم الله جل وعلا به فيبينوه للناس.

فإذن هداية الدلالة والبيان لم تترك للاجتهاد، وإنما قد بينت وأوضحت لأن الله جل وعلا هو الهادي وإن الله لهادي الذين آمنوا، قال جل وعلا في حق نبيه {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الشورى:٥٢]، يعين هداية البيان والدلالة والإرشاد.

إذن لا خير ولا شيء فيه الصلاح للعباد إلا وقد بُيّن ودل عليه العباد وأرشدوا إليه، في الكتب بما أنزل على الرسل وخاصة القرآن العظيم الذي أنزله الله جل وعلا على قلب خاتم المرسلين، وبما أوحى الله جل وعلا إلى نبيه من السنة.

وهذا يعني أن من ظنّ أو زعم أن هناك طريقا يوصل إلى الله جل وعلا ويهدي إلى الله دلالة وبيان لم يرد في الكتاب ولا في السنة، في ضمن هذا المقال أن البيان والهدى والدلالة والإرشاد التي جاءت في القرآن والسنة أنها لم تكن على وجه الكمال؛ لأن القائل بأنه يمكن أن نهتدي إلى سبيل لم ينص عليه في

القرآن والسنة، معنى ذلك أن هناك سبيل هداية لم يرشد إليه العباد، وهذا ولاشك باطل ومناقض لما في التنزيل والسنة، إذ تنزيل القرآن كان لهداية الخلق، والله جل وعلا ما فرّط في الكتاب من شيء، على أحد التفسيرين بأنه القرآن، وبيّن القرآن وأنزل الذكر لتبينه وهذا ليكون حجة كافية، وأعظم ما يؤخذ من القرآن العظيم ومن الرسالة، أعظم ما يؤخذ هو سبيل الهداية وسبيل النجاة. فإذن يتقرر بهذا أن سبيل النجاة وسبيل الهداية لابد أن يكون واضحا في القرآن وفي السنة أبلغ الوضوح وأعظم الوضوح وأظهره.

النوع الثالث من الهداية هداية التوفيق والإلهام:

وهذا النوع من الهداية مبتدؤه من العبد ومنتهاه من الله جل وعلا؛ يعني أن الله جل وعلا يمن بتوفيقه وبإلهامه وتسديده للعبد بسبب من العبد، قال الله جل وعلا {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣] وهذا النوع من الهداية يأخذ في تحصيله وهو توفيق الله جل وعلا وإلهامه وتسديده يأخذ بسببه العبد إذا سلك السبيل والطريق.

أما إذا سلك طريقا آخر بتفريط منه في العلم أو بتركه سبيل الحق بعد معرفته فإنه يوكل إلى نفسه ويحرم التوفيق والسداد والإلهام.

لهذا كان ما عند الله -جل وعلا- إنما يطلب منه يعني امتثال ما أمر، ولا شك أن العبد إذا سلك سبيل الهداية راغبا، فإن التوفيق على الله -جل وعلا- قد ووعده به العبد، وعد الله -جل وعلا- حق لا يخلف الله الميعاد، ولهذا كان من أسرار الدعاء العظيم الذي في الفاتحة وهو قوله تعالى {اهدِنَا الصِّرَاطَ

المُستَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}[الفاتحة:٦-٧]، هذا الصراط فُسّر بأنه الإسلام، القرآن ،السنة ونحو ذلك، وقيل في السؤال في الاستشكال إن المصلي قد حصلت له الهداية، الهداية إلى الصراط؛ لأنه ما دام مسلما مؤمنا مصليا قد هُدي إلى القرآن وإلى السنة وإلى الإسلام، فما فائدة هذا السؤال؟

وهو قول المصلي {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦] مع أنه مهتد إذ كان مؤمنا مسلما؟

وأجيب بأجوبة أحسنا :أن الهداية إلى الصراط المستقيم هداية إلى أفراد ذلك الصراط.

والصراط الذي هو الإسلام الإيمان القرآن السنة قد يأخذ العباد منه شيئا ويتركون شيئا آخرا، فأفراده كثيرة، أفراد القرآن من حيث الالتزام بها أحكامه أخباره كثيرة، كذلك أمور الإسلام الإيمان، فسؤال العبد ربه جل وعلا أن يهديه الصراط المستقيم؛ يعني أن يوفقه ويسدده لسلوك جميع أفراد الصراط المستقيم.

لهذا وصف ذلك الصراط بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم فقال { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} والذين أنعم الله عليهم هم الذين في سورة النساء يقوله جل وعلا {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] ، فدل على

أن الهداية للصراط أخص -هذا الصراط المذكور في الفاتحة- أخص من الهداية إلى مطلق الإسلام والإيمان أو مطلق الالتزام بالقرآن والسنة.

إذن فنحن في أمس الحاجة فيما يقول شيخ الإسلام وابن القيم وجماعة العلماء إلى هذا الدعاء {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦] لأنه ما من زمن إلا والصوارف فيه على الالتزام بجميع أفراد الصراط المستقيم أكثر من الزمن الذي قبله، وهذا مأخوذ من قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»(١).

ذلك الشر يكون بكثرة، يكون بأشياء منها كثيرة الصوارف عن لزوم الصراط المستقيم، لهذا كانت الحاجة عظيمة إلى أن تسأل الله جل وعلا الهداية إلى الصراط المستقيم.

الهداية يعني الالتزام وتمامه حصول التوفيق من الله جل وعلا هو الذي يعنى به هذا النوع من الهداية وهو الهداية هداية التوفيق السداد والإلهام.

إن التوفيق من الله -جل وعلا- ومعنى التوفيق عند أهل السنة والجماعة أن لا يكل الله العبد لنفسه، أن يمده بعون خاص به يكون قوة له على الطاعة وصرفا لقلبه عما لا يرضاه الله جل وعلا.

وغير أهل السنة يفسرون التوفيق بأنه خلق القدرة على الفعل ويفسرون الخذلان بأنه حرمانه من القدرة على الفعل، وهذا قول الأشاعرة وما شابههم، وهو باطل

---

١ - وأخرجه أحمد ١٣٢/٣ و١٧٧و١٧٩، والبخاري "٧٠٦٨" في الفتن: باب "لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه"، والترمذي "٣٣٠٧" في الفتن: باب رقم ٣٥، وأبو يعلى "٤٠٣٧"

وهذا ليس محل بيان بطلان.

المقصود أن التوفيق إعانة خاصة من الله -جل وعلا- للعبد، هذه الإعانة هي هداية من الله -جل وعلا-، لو لم يعن الله -جل علا -عبده عليها لم حصل على الهداية لم؟

لأن إبليس وجنده يرصدون العبد ويرصدون توجهاته ويرصدون سلوكه، وهم أحرص ما يكونون على صرفه.

فإذا كان معه عون من الله جل وعلا وتوفيق وتسديد كان قويا عليه، فإذا حُرم ذلك العون ذلك التسديد كانوا أقوى عليه من نفسه، ولذلك يكون أحوج ما يكون العبد إلى أن يهديه الله جل وعلا هداية التوفيق؛ لكن هذه مع أنها منة من الله جل وعلا وتفضل وتكرم؛ لكنها بسبب من العبد وهو أن يكون سالكا سبل الهداية.

النوع الرابع من أنواع الهداية :

هو الذي جاء في هذه الآية، وهو أعظم أنواع الهداية وآخرها ونتيجتها ومحصَّلها، وهو هداية المؤمنين إلى طريق الجنة، هداية المؤمنين إلى سلوك سبيل الصراط في الآخرة، كما أنهم سلكوا السبيل والصراط في الدنيا فإنهم يُهدون إلى السبيل وإلى الصراط في الآخرة؛ لأنه بيننا وبين الصراط يعني يوم القيامة ظلمة، دون الجسر ظلمة، ويُهدى المؤمنون -يهديهم الله جل وعلا- إلى الصراط، كل بحسب عمله، وهذه خاتمة الهدايات بالنسبة لأهل الإيمان،

يُهدون إلى سلوك الصراط وإلى نوع مشيهم وثباتهم وقوتهم على الصراط، وتعلمون أن من وصفه أنه أدق من الشعر وأحد من السيف وإنه مزلة، وهذا يشعره في أن السير عليه عسير إن لم يكن ثم مدد وتوفيق من الله جل وعلا، وهذا من أفراد هذه الهداية.

كذلك يهدى إلى طريق الجنة ويهدى إلى منزله، قال جل وعلا {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [محمد: ٤-٥] لأنهم قد قتلوا فإذن الهداية هنا ليست هداية الدنيا فإنما هي هداية الآخرة.

ويقابل ذلك في حق أهل النار قال جل وعلا {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ(٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ}[الصافات:٢٣-٢٤]، في سورة الصافات، يهدى أهل الجنة إلى الجنة ويهدى أهل النار إلى النار، وهذه ثمرة الهداية في الدنيا ثمرة من قبلها وثمرة من لم يقبلها.

حقيقة الهداية في الجنة: وأما قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عن المؤمنين لما سكنوا مساكن الجنة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف:٤٣] .

فقال عامة المفسرين: الحمد الذي هدانا لطريق الجنة بالعمل الصالح فاهتدينا، وقال غيرهم: الحمد لله الذي هدانا منازلنا فعرفناها في الجنة، وصح عنه عليه

الصلاة والسلام أنه قال: {للمؤمن في الجنة أدل بمنزله منه في الدنيا} فيدخل المؤمن في الجنة فيعرف منزله، تلك المنازل:

فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

أما والذي شق القلوب وأوجد الـمحبة فيها حيث لا تتصرم

وحملها جهد المحب وإنه ليضعف عن حمل القميص ويألم

لأنتم على بعد الديار وقربها أحبتنا إن غبتم أو حضرتم

قال: فالمؤمن يهتدي إلى منزله، كيف يهتدي؟

لأن الجنة واسعة عرضها السماوات والأرض، ومنزلك قد يكون في أقصاها، وأقل من يسكن الجنة له عشرة أمثال الدنيا، فيهتدي إلى منزله دون أن يعرف أو يدل، وذلك بهداية الله سبحانه، والصحيح أن: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } [الأعراف:٤٣] أي: للعمل الذي أدخلنا الجنة، فإن الجنة تدخل برحمة الله وتنزل بالأعمال، ولذلك قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: { وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [الزخرف:٧٢] فظاهر الآية أنه يدخل الجنة بالعمل، بينما قالوا للرسول

عليه الصلاة والسلام لما قال: { لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: حتى أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته }([1]).

قال ابن القيم-رحمه الله-: والجواب بين الآية والحديث أن الدخول في الجنة لا يكون إلا برحمة الله، ولا يدخل أحد بعمله، وأما النزول في المنازل والدرجات فبالأعمال، وهذا هو الصحيح المعتبر.

الهداية تزيد وتنقص: اعلم علمني الله و إياك: إن الهداية التي هي منة من الكريم الوهاب تزيد بالطاعات و تنقص بالمعاصي و المحرمات وهذا اصل من أصول أهل السنة و الجماعة أن الإيمان بالله تعالى يزيد بالطاعات و ينقص بالذنوب ، و قد ورد ذلك في غير آية من الايات من كتاب رب الأرض و السماوات يقول سبحانه و تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)}

يقول تعالى ذكره: وأما الذين وفَّقهم الله لإتباع الحقّ، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد، فإن ما تلوته عليهم، وسمعوه منك(زَادَهُمْ هُدًى) يقول: زادهم الله بذلك إيمانا إلى إيمانهم، وبيانا لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم. وقد ذُكر أن الذي تلا عليهم رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم من القرآن، فقال أهل النفاق منهم لأهل

[1] – أخرجه مسلم في الصحيح (كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى (٤/ ٢١٧١)، ح (٢٨١٨/ ٧٨)

الإيمان، ماذا قال آنفا، وزاد الله أهل الهدى منهم هدى، كان بعض ما أنزل الله من القرآن ينسخ بعض ما قد كان الحكم مضى به قبل. (١)

قال –جل ذكره–: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) الكهف }

يقول الشنقيطي – رحمه الله –ذكر جل وعلا فيه هذه الآية الكريمة لنبيه صلى الله عليه وسلم –أنه يقص عليه نبأ أصحاب الكهف بالحق. ثم أخبره مؤكداً له أنهم فتية آمنوا بربهم، وأن الله جل وعلا زادهم هدى.

ويفهم من هذه الآية الكريمة –أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى. لأن الطاعة سبب المزيد من الهدى والإيمان.

وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في مواضع أخر . كقوله تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : ١٧] ، وقوله : { والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } [العنكبوت : ٦٩] الآية ، وقوله تعالى : { يا أَيُّهَا الذين آمنوا إَن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا } [الأنفال : ٢٩] الآية ، وقوله : { فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [التوبة : ١٢٤] ، وقوله تعالى : { هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إِيمَانًا مَّعَ

---

١ – تفسير الطبري –(ج ٢٢ / ص ١٧٠).

إِيمَانِهِمْ } [الفتح : ٤] الآية ، وقوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ } [الحديد : ٢٨] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وهذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد -مفهوم منها أنه ينقص أيضا، كما استدل بها البخاري رحمه الله على ذلك. وهي تدل عليه دلالة صريحة لا شك فيها، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه كما ترى. والعلم عند الله تعالى .. (١)

ويقول الحق سبحانه وتعالى {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) (سورة مريم)}

يقول الطبري – رحمه الله -يقول تعالى ذكره: ويزيد الله من سلك قصد المحجة، واهتدى لسبيل الرشد، فآمن بربه، وصدّق بآياته، فعمل بما أمره به، وانتهى عما نهاه عنه هدى بما يتجدّد له من الإيمان بالفرائض التي يفرضها عليه ، ويقرّ بلزوم فرضها إياه، ويعمل بها، فذلك زيادة من الله في اهتدائه بآياته هدى على هداه، وذلك نظير قوله(وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ). وقد كان بعضهم يتأول ذلك: ويزيد الله الذين اهتدوا هدى بناسخ القرآن ومنسوخه، فيؤمن بالناسخ، كما آمن من قبل بالمنسوخ، فذلك زيادة هدى من الله له على هُدَاه من

---

١ – أضواء البيان – (ج ٣ / ص ٢٨٨)

قبل(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا) يقول تعالى ذكره: والأعمال التي أمر الله بها عباده ورضيها منهم ، الباقيات لهم غير الفانيات الصالحات، خير عند ربك جزاء لأهلها(وَخَيْرٌ مَرَدًّا) عليهم من مقامات هؤلاء المشركين بالله، وأنديتهم التي يفتخرون بها على أهل الإيمان في الدنيا.(١)

١ – تفسير الطبري – (ج ١٨ / ص ٢٤٤)

الفصل الثالث

الهداية إلى الصراط المستقيم وصفة الصراط

الصراط المستقيم هو الطريق الواضح المستقيم الذي يوصل إلى رضا الله تعالى والجنة، وهو دين الإسلام الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ، المتمثل في الإيمان والعمل الصالح، واتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

صفة الصراط المستقيم

وصف الله تعالى الصراط المستقيم بعدة صفات تدل على كماله ووضوحه وسلامته:

أولا: أنه مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ثانيا: أنه صراط الله الذي اختصه لنفسه ورضيه لعباده. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

ثالثا: أنه صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

رابعا: أنه واضح بيّن لا يخفى على من أراده، وقد بيّنه النبي ﷺ أتم بيان. قال ﷺ: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك» (رواه ابن ماجه وغيره).

خامسا: أنه واحد لا يتعدد، وكل الطرق الأخرى سبل منحرفة تُفرق عن سبيل الله.

يقول عائض القرني – حفظه الله–: وقفات مع قوله: (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

الصراط المستقيم له خمس صفات:

الصفة الأولى: القُرْب

الصفة الثانية: الاتساع.

الصفة الثالثة: الاستقامة.

الصفة الرابعة: إيصال المقصود.

الصفة الخامسة: وجود الإمام في أوله.

من صفات الصراط المستقيم: القُرب

يقول أن ابن القيم –رحمه الله– في مدارج السالكين عندما قال: أقرب خط بين نقطتين الخط المستقيم وهو صحيح؛ لكن ابن القيم لا يريد أن يفسر الصراط

المستقيم بأنه نزل ليبين لنا في علم الهندسة هذا الأصل؛ لكن يبين لنا أن أقرب الخطوط الموصلة هو المستقيم.

فالله ذكر خطَّه بأنه مستقيم، وذكر خطوط أعدائه بأنها مُعْوَجَّة، أي: لا توصَّل إلا بعد عناء، وإلى أين توصله؟! توصل العبد المنحرف -والعياذ بالله-إلى نار جهنم، أما هذا الخط المستقيم فيوصل مباشرة ودون عناء إلى الجنة من الصراط هنا إلى الصراط هناك ثم إلى الجنة.

من صفات الصراط المستقيم: الاتساع: فما أوسع من الصراط المستقيم، فلم يقل: الطريق المستقيم؛ لأن العرب تقول للطريق الواسع: صراط، والصراط هو الذي يبتلع المارة، ولا تقول للطريق الضيق: صراطًا، وهذه من لغة العرب العجيبة الجميلة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة:٧].

فهو طريق واسع، ووُسْعُه: أن الناس لا يزدحمون فيه، ولا يتحاسدون، فأهل الآخرة لا يحسد بعضهم بعضًا؛ لأنهم في طريق واحد يتعاونون على طاعة الله، مثل: الإمام أحمد، والإمام الشافعي، فمن مقتضيات عقول البشر أن الإمام الشافعي مهنته مهنة أحمد، وهو صاحبه.

ويقال في المثل العامي: (عدوك صاحب مهنتك) فتجد النجار -الآن-عدو للنجار -إلا ما رحم ربك-يريد أن يقدح في صنعته، إذا دخل النجار إلى البيت فسنتقد الأبواب، ويقول: لو ركبها هكذا، ولو أصلحها هكذا، والخياط ينقد الخياط، والشاعر على الشاعر

وهكذا.

لكن الإمام أحمد والشافعي هما من أهل الآخرة، يقول الإمام أحمد لـ ابن الشافعي: "أبوك من السبعة الذين أدعو الله لهم وقت السَّحَر" فالطريق واسع.

أما أهل الدنيا فيزدحمون؛ لأن طرق الدنيا ضيقة، إذا ذهبت إلى وظيفة سبقك إليها مائة، وإذا ذهبت إلى سيارة سبقك إليها مائة، وزاحمك على شراء الأرض ألف، أما طريق الآخرة فواسعة.

من صفات الصراط المستقيم: الاستقامة: فهو ليس بمُعْوَج، وهذه الصفة تندرج في الصفة الأولى: وهي القُرْب.

من صفات الصراط المستقيم: إيصال المقصود:

فلا يوصِل أبداً إلى الله تعالى إلاَّ هذا الصراط ولهذا عن عبد الله بن مسعود قال: خط عبد الله خطا مستقيما ، وخط خطوطا عن يمينه وعن شماله ، فقال: خط رسول الله ﷺ هكذا فقال للخط المستقيم: «هذا سبيل الله» ، وللخطوط التي عن يمينه وشماله: " هذه سبل متفرقة ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، والسبيل مشترك كما قال الله تعالى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } [الأنعام: ١٥٣] فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " (١)

---

١ – أخرجه أحمد (٤١٤٢)، والمروزي في «السنة» (٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٠٩)، وابن حبان (٦)، والحاكم: (٢/ ٣١٨) وصححه. وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله أخرجه أحمد (١٥٢٧٧)، وابن ماجه (١١).

من صفات الصراط المستقيم: وجود الإمام في أوله: فإن الطريق إذا لم يكن له إمام لا يوصل عادة، والإمام هو الدليل.

فمن هو الدليل؟ من هو الماهر الذي يجيد الخط؟ من هو الذي يعرف أسرار وعلامات هذا الطريق نزله منزلة منزلة، هبطه واديـًا واديـًا، وعرفه جبلاً جبلاً، وساحة ساحة، وأدركه وفهمه؟! إنه محمد عليه الصلاة والسلام.

ولذلك رشحه الله للإمامة، فيقول في الصلاة: {صلوا كما رأيتموني أصلي}(١) كما في صحيح البخاري ، ويقول في المناسك: { خذوا عني مناسككم }(٢) ويقول: { من رغب عن سنتي فليس مني }(٣) ويقول كما في كتاب الحجة ورواه النووي بسند صحيح، يقول: { لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعـًا لما جئت به }.(٤)

إذاً: هذه هي الإمامة.

والله لا يرضى منك يوم القيامة عملاً حتى تتبعه {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} [الأعراف:١٥٧] النبي الأمي فقط، فلا ثَمَّ إمام ولا شيخ إلا هو، ولا أستاذ

---

١ – أخرجه البخاري (٦٣١) (٦٠٠٨)، ومسلم (٦٧٤) وانظر جامع الأصول (٥/ ٥٧٦ – ٥٧٧).

٢ – أخرجه مسلم: كتاب الحج – باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا ٩٤٣: ٢ (٣١٠)، والنسائي: كتاب مناسك الحج – الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم ٥: ٢٧٠ (٣٠٦٢) ولفظه: "خذوا مناسككم" ليس فيه "عني"

٣ – رواه أحمد ١٣٥٦٨، ١٣٧٦٣، ١٤٠٩٠. ورواه البخاري ٩: ٩٠، ومسلم ١: ٣٩٤، والنسائي ٢: ٧٠. ورواه أيضاً الدارمي ٢: ١٣٣

٤ – ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (١٥)، وابن بطة في "الإبانة" (٢٧٩) من طريق محمد ابن مسلم بن وارة. وأخرجه ابن بطة (٢٧٩)

إلا هو، وإن أتيت من غير طريقه لا يُفْتَح لك الباب يوم القيامة؛ لأن أول مَن يَقْرَع باب الجنة هو محمد ﷺ ، فيُفْتَح له، ثم يذهب ومعه أتباعه.

وأما الذين تخلفوا عن ركبه، وهم: النخبة المثقفة!!

أشياخه صفر الجباه بـ دنفر هنري كسنجر خير مروياته

أما هؤلاء النخبة المثقفة وغيرهم فما اهتدوا صراحةً بهداه عليه الصلاة والسلام؛ لأن لهم أشياخـًا من نوع آخر، فلذلك يراهم ﷺ يوم القيامة فيرى أن السنة ليست عليهم، يقولون: يا رسول الله! نحن أتباعُك.

فيقول: لا، لستم بأتباعي؛ لأن أتباعه لهم علامات، صاحب الخيل البلق يعرف خيله البلق، وصاحب الدُّهم يعرف الدُّهم، حتى البدوي الأعرابي إذا ضلت ناقته في الصحراء، يصفها بلونها، ووبرها، وطولها، وسمتها.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يعرف أمته {إن أمتي يُدعون يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يُطيل غُرَّتَه فليفعل }(١) فهو يعرفهم ﷺ أما أولئك فيقول لهم: { سحقـًا سحقـًا } فنسأل الله أن يهدينا وضال المسلمين.

---

١ – البخاري ١/ ٢٣٥ (١٣٦)، ومن طريق سعيد في مسلم ١/ ٢١٦ (٢٤٦). ومن طريق الليث في المسند ١٥/ ١٠٤ (٩١٩٥).

لا التقاء بين الهداية والضلالة: قضية كبرى في {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٧] وهي من الفوائد، وهي أنه لا التقاء مع الصليب، ولا التقاء مع نجمة إسرائيل.

{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٧] هناك عداء أصيل شرعي، لا يدخل فيه التعايش السلمي، ولا الوفاق الدولي، ولا الحب الإنساني، ولا مجلس الأمن، ولا هيئة الأمم المتحدة، عداء أصيل من القدم، لأن اليهود ماذا يقولون؟ {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا } [المائدة:٦٤] { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة:٣٠] فكيف يلتقي المسلم مع النجمة؟! وكيف يلتقي مع اليهود؟! وكيف يلتقي مع النصارى؟! لا التقاء أبداً.

الصليب والنجمة أعداء لنا لا وفاق دولي، ولا تعايش سلمي معها { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكافرون:١-٦].

{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٧] فلسنا بالذين يتمسحون على عتبات شامير، أو يتقربون من الصليب، وإنما نحن لنا تميز، وكيان، لنا شِرْعة، وواجهة، وإمام، وإمامنا على الصراط يدعونا ألا ننحرف هنا، حتى لا ننحرف هناك.

هذه من أسرار {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٧].

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٦-٧] تطلب من الأمة مطلباً عظيماً، وهو: أن يتعلموا العلم النافع، والعمل الصالح.

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام في الصحيحين، من حديث أبي موسى: { مثل ما بعثني الله فيه من الهدى والعلم كمثل الغيث }(١) الهدى: العمل الصالح، العلم: العلم النافع.

فلا بد أن تجمع بين العلم والعمل، وعسى الله أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم، لا صراط المغضوب عليهم، ولا صراط الضالين.

وهذا هو معلم الولاء والبراء، أن نكون أولياء لله نغضب لله، ونرضى لله، ونجاهد من أجل الله عز وجل، ونقف على الصراط المستقيم.(٢)

---

١ – أخرجه البخاري (٤٢/١، رقم ٧٩) ، ومسلم (١٧٨٨/٤ رقم ٢٢٨٣) وأخرجه أيضًا: ابن حبان (١٧٦/١ رقم ٣) ، والبزار (١٤٩/٨، رقم ٣١٦٩) ، والرامهرمزى (٢٨/١، رقم ١٢) .

٢ –كتاب لا تحزن للدكتور عائض القرني –بتصرف يسير

الفصل الرابع: موانع الهداية

أخي المسلم: بعد أن تعرفنا على معنى ومدلول الهداية وعرفنا أيضا أنواعها فما هي موانع الهداية إلى الصراط المستقيم وهل هناك أسباب تحول بين العبد وبين سلوك طريق الهداية؟

ما هي الموانع:

الجواب: موانع الهداية هي الأسباب والأحوال التي تحول بين العبد وبين قبول الحق والانتفاع به، أو تحول بينه وبين التوفيق للعمل به بعد معرفته. فالهداية بيد الله وحده، لكنه جعل لها أسبابًا وموانع، فمن أخذ بأسبابها وأزال موانعها كان حريًا أن يوفَّق، ومن أعرض عن الأسباب وتمسك بالموانع حُرم الهداية.

وقد بيّن الله تعالى ورسوله ﷺ هذه الموانع في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة، حتى يحذرها العبد ويجتهد في إزالتها من قلبه.

هيا أخي الحبيب لنقف على الداء ثم نصف له الدواء من كتاب رب الأرض والسماء ومن سنة سيد الأصفياء ﷺ

أولا: ضعف المعرفة:

إن المعرفة الصحيحة والعلم النافع هما أساس كل خير، ومفتاح الوصول إلى صراط الله المستقيم. وبالمقابل، فإن ضعف المعرفة وقصور العلم يُعدان من أبرز العوائق التي تقف حائلاً بين الإنسان وبين معالم الهداية والرشاد.

فالجهل بحقائق الدين، والسطحية في فهم سنن الله في الكون والنفس، تجعل صاحبها يعيش في غبش من التصورات وتخبط في السلوك والمواقف.

إن ضعف المعرفة ليس مجرد خلوّ من المعلومات، بل هو أرضية خصبة تنبت فيها الشبهات وتترعرع فيها الشهوات.

وحين يضعف إدراك العبد بعظمة الخالق، وبحقيقة الوحي، وبيقين الدار الآخرة، يفقد البوصلة التي توجه قلبه نحو الحق، ويصبح فريسة سهلة للأفكار المضللة والتيارات الجارفة.

وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن الإعراض عن العلم والجهل بالحق هو سبب ضلال كثير من الأمم، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

ومن هنا ندرك أن تجديد المعرفة وبناء الوعي ليسا ترفًا فكريًا، بل هما طوق النجاة والسبب الأول لتلقي هداية الله والتوفيق لمرضاته.

اعلم علمني الله و إياك: أن من خطر موانع الهداية ضعف المعرفة بالله و برسوله و بالصراط المستقيم فكم من خلق ضلوا الطريق و حادوا عن الصراط المستقيم لضعف معرفتهم بطبيعة الحق فإن كمال العبد في أمرين : معرفة الحق من الباطل ، وإيثار الحق على الباطل ، فإن من الناس من يعرف الحق لكن إيثاره على الباطل قد يكون عنده ضعيفا، والجاهل إذا عرف كان قريب الانقياد والإتباع ، وبهذا يكون قد قطع نصف الطريق إلى الحق وما بقي عليه إلا قوة العزيمة على الرشد {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} [الكهف: ٦٨] ، وهذا السبب هو الذي حال بين كثير من الكفار وبين الإسلام ، فإنهم لا يعرفون عنه شيئا، ومع ذلك يكرهونه ، وكما قيل :الناس أعداء لما جهلوا .

و الناظر إلى أعداء الحق في هذه الآونة الأخيرة، سواء كانوا من الكافرين و الملحدين و العلمانيين يجدهم يقفون في وجه الحق و يحاربون أهله و السبب الأكبر في ذلك هو جهلهم بالحق و بطبيعته و جهلهم بالله تعالى و مراد رسوله ﷺ-ومن المؤسف جهل المسلمين في هذه الأيام بحقيقة هذا الدين ، فمنهم من يقول : إذا تبت وأنبت إلى الله وعملت صالحا ضيق علي رزقي ونكد علي معيشتي ، وإذا رجعت إلى المعصية وأعطيت نفسي مرادها جاءني الرزق والعون ، ونحو هذا. هو يعبد الله من أجل بطنه وهواه، وإذا حصل مثل هذا فالله يختبر صدق العبد وصبره، فلا إله إلا الله! كم فسد بهذا الاغترار من عابد جاهل، ومتدين لا بصيرة له، ومنتسب إلى العلم لا معرفة له بحقائق الدين، أما

قرأت قوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} [الحج: ١١]، فسبحان الله ! كم صدت هذه الفتنة الكثير عن القيام بحق يقة هذا الدين، والسبب: الجهل بالدين، والجهل بحقيقة النعيم الذي يطلبه ويعمل من أجل أن يصل إليه، كم نسبة نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة؟ أما الأوامر والنواهي فهي رحمة وحمية، ونغص الله الدنيا على المؤمنين حتى لا يطمئنوا إليها ويركنوا إليها ويرغبوا في نعيم الآخرة.

ثانيا: ومن موانع الهداية عدم الأهلية

إن الهداية توفيق رباني ونور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن هذا النور الإلهي لا يستقر إلا في وعاء طيب طاهر مهيأ لتعظيمه وقبوله. ومن هنا يبرز "عدم الأهلية" كواحد من أخطر الموانع الخفية والظاهرة التي تحرم العبد من أنوار الهداية وصراط الله المستقيم.

معنى عدم الأهلية: المراد بعدم الأهلية هنا: أن يكون القلب أو النفس غير مستعدٍّ ولا متهيّئٍ لقبول الحق والانتفاع به.

فالإنسان قد يسمع الحق ويراه واضحًا، لكنه لا ينتفع به لأن قلبه غير مؤهل لاستقباله، إما لفسادٍ فيه، أو لانشغاله بغيره، أو لوجود حواجز تحول بينه وبين التأثر.

فالهداية كالماء العذب، والقلب كالإناء، فإذا كان الإناء متسخًا أو مقلوبًا أو ممتلئًا بالقاذورات، لم ينتفع بالماء ولو صُبّ عليه كثيرًا.

والمقصود بعدم الأهلية هنا هو فساد المحل (وهو القلب)، بحيث يفتقر الإنسان إلى الصفات الفطرية والأخلاقية الأساسية التي تجعله قابلاً للحق ومنقاداً له.

فالقلب المليء بالخبث، والغل، وعشق الباطل، والتلذذ بالفساد، يصبح بيئة طاردة للحق لا تجتمع مع الإيمان.

وحين يعلم الله سبحانه وتعالى من عبده أنه لا يصلح للهداية، وأن الهدى لو جاءه لزاده طغيانـًا وكفراً، يصرفه عنها عدلاً منه سبحانه، كما قرر الحق هذه السنّة الإلهية في كتابه الكريم فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وكما في حديث حذيفة-رضي الله عنه-عن حذيفة بن اليمان، قال: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير»، قال الفزاري: الحصير الطريق، " فأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، وأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، حتى تصير القلوب إلى قلبين: قلب أبيض مثل الصفا، لا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر مرباد أسود كالكوز مجخيا «، وقال بيده هكذا» منكوسا، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه» (١)

وتأمل أخي إلى ذلك البيان من كتاب الرحمن وهو – سبحانه يخبر عن عدم أهلية الكفرة والمشركين قال –جل ذكره-: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣]

---

١ -أخرجه مسلم (١٤٤)، والبزار في "مسنده" (٢٨٤٤)، وأبي عوانة (١٤٤)، والبغوي في " شرح السنة" (٤٢١٨)

قال أبو جعفر-رحمه الله-: فتأويل الآية إذًا: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرًا، لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبَره، حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لتولوا عن الله وعن رسوله، وهم معرضون عن الإيمان بما دلَّهم على صحته مواعظُ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به. (١)، مثل: الأرض الصلدة التي يخالطها الماء، فإنه يمتنع النبات فيها لعدم قبولها، فإذا كان القلب قاسيا لم يقبل النصائح، وأبعد القلوب من الله: القلب القاسي، وكذا إذا كان القلب مريضا، فلا قوة فيه ولا عزيمة، لما يؤثر فيه العلم .ومن صفاتهم كما وصفهم الله: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر: ٤٥]

---

١ – تفسير الطبري –(ج ١٣ / ص ٤٦٣).

ثالثا: الحسد والكبر

أخي الحبيب : اعلم أن المعركة بين الحق والباطل معركة قديمة، لم يكن عائقها يومـًا قلة الأدلة أو غموض البراهين، بل كانت العوائق النفسية والأمراض القلبية هي الجدار العازل الذي يحرم الإنسان من نور التوفيق.

ومن أشد هذه الأمراض فتكـًا بالعبد، وأعظمها حائلاً بينه وبين الرشاد: الحسد والكبر.

إن الكبر والحسد يمثلان أول ذنبين عُصي الله بهما في السماء والأرض؛ فتكبر إبليس عن السجود لآدم، وحسد قابيل أخاه هابيل فقتله. وحين يمتزج الكبر — وهو بطر الحق وغمط الناس— مع الحسد —وهو تمني زوال النعمة وكراهية الخير للآخرين— ينطمس نور الفطرة في النفس تمامـًا.

فلا يعود المتكبر قادراً على الانقياد للحق لأنه يراه ذلاً، ولا يملك الحاسد القدرة على اتباع الداعي إلى الهدى لأن الحسد يمنعه من الاعتراف بفضله.

وحينها يجازي الله صاحب هذه الأخلاق الدنيئة بالطرد من رحمة الهداية، كما قال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال عن حسد أهل الكتاب وضلالهم:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال –جل ذكره–: {إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ} [الصافات ٣٤-٣٥)

فهو أعظم صارف عن الهداية، قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف:١٤٦]

قال أبو جعفر–رحمه الله–: يقول تعالى ذكره: وإن ير هؤلاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق و "وتكبرهم فيها بغير الحق"، تجبرهم فيها، واستكبارهم عن الإيمان بالله ورسوله، والإذعان لأمره ونهيه، وهم لله عبيدٌ يغذوهم بنعمته، ويريح عليهم رزقه بكرة وعشيًّا، {كل آية}، يقول: كل حجة لله على وحدانيته وربوبيته، وكل دلالة على أنه لا تنبغي العبادة إلا له خالصة دون غيره. {لا يؤمنوا بها}، يقول: لا يصدقوا بتلك الآية أنها دالة على ما هي فيه حجة، ولكنهم يقولون: "هي سحر وكذب" {وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا}، يقول: وإن ير هؤلاء الذين وصف صفتهم طريق الهدى والسداد الذي إن سلكوه نجوا من الهلكة والعطب، وصاروا إلى نعيم الأبد، لا يسلكوه ولا يتخذوه لأنفسهم

طريقًا، جهلا منهم وحيرة {وإن يروا سبيل الغي}، يقول: وإن يروا طريق الهلاك الذي إن سلكوه ضلّوا وهلكوا. (١)

يقول القطان – رحمه الله –: بعد أن بيّن الله تعالى لما لحق فرعون وقومه بسبب من استكباره وظلموه وفساده في الأرض، بيَّن هنا ضلال البشر وتكذيبهم للرسل، وذكر أن السبب في كل ذلك هو التكبر.

ومعنى الآية: سأمنع أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبّرون عن قبول الصواب بغير الحق من التفكير في دلائل قدرتي إنهم يروا كل آية تدل على صدق رسُلنا لا يصدقوا بها ، أما حين يشاهدون طريق الضلال فسرعان ما يلكونه راغبين ، وذلك لأنهم كذّبوا بآياتنا المنزلة ، وغفلوا عن الاهتداء بها .

وأمثال هؤلاء كثيرون اليوم في بلادنا من المسلمين، لقد درسوا في الغرب ورأوا زخرف المدنيّة الأوروبية، وغرَّهم بَهْرَجها، وأخذوا منها ما يوفر لهم اللذات والمتع ولم يأخذوا العلم النافع ولا الصناعة المفيدة، والأنظمة النافعة. ...والذين كذّبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا للهداية، كما كذّبوا بلقائنا يوم القيامة، ومن ثم أنكروا البعث والجزاء–بطلت أعمالُهم التي كانا يرجون نفعها.

لذا فإنهم لن يلاقوا إلا جزاء ما استمروا عليه من العصيان، وإنكار دعوة الرسل. (٢)

---

١ – تفسير الطبري – (ج ١٣ / ص ١١٤).

٢ – تفسير القطان –(ج ٢ / ص ٧٥).

فالمتكبر لا ينقاد للحق ولا يهديه الله سواء السبيل بسبب كبره، وأعظم صارف لليهود عن الدخول في الإسلام هو: الكبر والحسد، و إلا فيعرفون أن الرسول -ﷺ- من عند الله { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [البقرة:٨٩]

و تأمل حال أحبار اليهود لما جاءهم الرسول -ﷺ- كفرو به و المانع الهم عن إتباعه ما هو إلا الكبر.

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة: ١٤٦]

عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ أَنَّهَا قَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ مِنْ وَلَدِ أَبِي وَعَمِّي أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِمَا مِنِّي، لَمْ أَلْقَهُمَا قَطُّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا أَهَشُّ إِلَيْهِمَا إِلَّا أَخَذَانِي دُونَهُ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- قُبَاءَ نَزَلَ قَرْيَةَ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، غَدَا إِلَيْهِ أَبِي وَعَمِّي أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ، مغلّسين، فو الله مَا جَاءَانَا إِلَّا مَعَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، فَجَاءَانَا فَاتِرَيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى فَهَشَشْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أصنع، فو الله مَا نَظَرَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فَسَمِعْتُ عَمِّي أَبَا يَاسِرٍ، يَقُولُ لِأَبِي: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَاللهِ. قَالَ:تَعْرِفُهُ بِعَيْنِهِ وَصِفَتِهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَاللهِ، قَالَ: فَمَاذَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ، قَالَ: عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بقيت» (١)

١ – سيرة ابن هشام – (١ / ٥١٧) عيون الأثر – (١ / ٢٧٧) السيرة النبوية لابن كثير – (٢ / ٢٩٨ الروض الأنف – (٢ / ٣٧٦)

و كفار مكة و عليتهم ما أمنوا بالنبي -ﷺ- لان الذي منعهم مرض الكبر {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣]

عن السدي في قوله: "قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون" ، لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة، إن محمدًا ابن أختكم، فأنتم أحقُّ مَنْ كَفَّ عنه، فإنه إن كان نبيًّا لم تقاتلوهُ اليوم، وإن كان كاذبًا كنتم أحق من كف عن ابن أخته! قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم فإن غُلب محمدٌ -ﷺ- رجعتم سالمين، وإن غَلَب محمدٌ فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئًا فيومئذ سمّي "الأخنس"، وكان اسمه "أبيّ" فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا! فقال أبو جهل: وَيْحك، والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمّد قط، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيٍّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣] "فآيات الله"، محمدٌ -ﷺ-.(١)

---

١ – تفسير الطبري –(ج ١١ / ص ٣٣٣)

ونعلم من بعض الناس الذين أثرت فيهم النزعة العلمانية، وتعاليم وأساليب العلمانية أنه ما يمنعه من سلوك الهداية وطلب العلم والاستفادة إلا الكبر، وإلا فهو يعلم أنه مخطئ ومذنب، فعسى الله أن يجازيه بفعله

والناظر إلى كثير من بني جلدتنا يجدهم يردون الحق ويدفعونه ولا يقبلونه لان داء الكبر قد سمم قلوبهم وطمس على أعينهم فردوا بذلك الحق وما قبلوه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ -ﷺ- :قَالَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ (١)

يقول ابن رجب – رحمه الله–فالمتكبر ينظرُ إلى نفسه بعين الكمال، وإلى غيره بعين النَّقصِ فيحتقرهم ويزدريهم، ولا يراهم أهلاً لأنْ يقومَ بحقُوقهم، ولا أن يقبلَ مِنْ أحد منهم الحقَّ إذا أورده عليه (٢).

---

١ – أخرجه مسلم (٩١) (١٤٧).

٢ – جامع العلوم والحكم – (ج ٣٥ / ص ٢٢)

رابعا-ومن موانع الهداية: مانع الرياسة

أخي المسلم: فإن عوائق الهداية ليست دائماً جهلاً بالحق أو خفاءً في برهانه، بل كثيراً ما تكون أمراضاً نفسية وشهوات خفية تتملّك القلب وتأسره. ومن أخطر هذه الشهوات التي تقف حائلاً بين الإنسان وبين قبول الحق والتوفيق له: شهوة الرياسة وحب الجاه والمنصب.

إن حب الزعامة والرياسة يُعمي البصيرة عن رؤية الحقائق؛ فالمرء حين يتربع على عرش رياسةٍ دينية، أو سياسية، أو اجتماعية، يرى في الانقياد لشرع الله ولأهل الحق تهديداً مباشراً لمكتسباته، ونقصاً من هيبته ونفوذه بين أتباعه. وحينئذٍ، يقع في قلبه تقديم الحفاظ على الكرسي والمنصب على اتباع الهدى، فيختار الضلالة وهو يعلم أنه مبطل.....

معنى مانع الرياسة: المراد بالرياسة هنا: حب الزعامة والقيادة والمكانة الاجتماعية، والحرص على البقاء في موقع السلطة أو الجاه أو الصدارة بين الناس.

فإذا جاء الحق يخالف هذه الرياسة أو يهددها، رفضه صاحبُها ولو علم أنه الحق، لأن قبول الحق قد يعني التنازل عن شيء من جاهه أو سلطته أو مكانته.

ولهذا كان أكثر من عاند الأنبياء هم رؤساء أقوامهم وسادتهم، لأنهم رأوا أن الإيمان يُنقص من رياستهم.

كيف يمنع حب الرياسة من الهداية؟

يجعل الإنسان يقدّم مصلحة جاهه على مصلحة دينه.

يدفعه إلى ليّ أعناق النصوص وتأويلها بما يحفظ مكانته.

يورثه الكبر والترفع عن قبول الحق ممن هو دونه في المنزلة.

يجعله يستكثر على غيره أن يكون هو صاحب الحق والهداية.

قال ابن تيمية رحمه الله ما معناه: إن كثيرًا من الناس يردّون الحق لأنهم يرون أن قبوله يُسقط منزلتهم أو ينقص من رياستهم.

ولنضرب على ذلك أمثلة:

فرعون وجنده: يقول الله تعالى {ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [المؤمنون: ٤٥-٤٩]

يقول السعدي – رحمه الله -فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟

" وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟

" ونظير قولهم قول قوم نوح {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ} {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق وأنه

تكذيب ومعاندة، ولهذا قال {فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ} في الغرق في البحر وبنو إسرائيل ينظرون (١).

عبد الله بن أبي بن سلول – لعنه الله – كان يعلم النبي -ﷺ- بصفته و نعته كما جاءت في التوراة و لكنه كفر به و حاربه و أن اظهر الإيمان و الذي جعله لا يؤمن هو انه كان مرشحا لرياسة المدينة قبل قدوم النبي -ﷺ- فلما جاء النبي -ﷺ- صرفت عنه فأسرها في نفسه

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قِيلَ لِلنَّبِيِّ -ﷺ- لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ قَالَ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ وَرَكِبَ حِمَارًا وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ وَهِيَ أَرْضٌ سَبَخَةٌ فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِلَيْكَ عَنِّي فَوَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ قَالَ فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ قَالَ فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَبِالْأَيْدِي وَبِالنِّعَالِ قَالَ فَبَلَغَنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِمْ)(٢)

هرقل فقد منعه من الإيمان بالرسول – -ﷺ- حب المنصب و الرياسة

عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّأْمِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ

---

١ – تفسير السعدي –(ج ١ / ص ٥٥٢)

٢ – أخرجه البخاري ح ٢٤٩٤و مسلم ح ٣٣٥٧

الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا فَقَالَ أَدْنُوهُ مِنِّي وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ قَالَ فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ قُلْتُ لَا قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ لَا قَالَ فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ قَالَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ قَالَ فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ قُلْتُ لَا قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ لَا وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا قَالَ وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ قَالَ فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ قُلْتُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ قَالَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا فَقَدْ أَعْرِفُ

أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي

كَبْشَةَ إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَالُوا لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنْ الْيَهُودِ فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ وَسَأَلَهُ عَنْ الْعَرَبِ فَقَالَ هُمْ يَخْتَتِنُونَ فَقَالَ هِرَقْلُ هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ -ﷺ- وَأَنَّهُ نَبِيٌّ فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنْ الْإِيمَانِ قَالَ رُدُّوهُمْ عَلَيَّ وَقَالَ إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا

أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ فَقَدْ رَأَيْتُ فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ)(١)

يقول ابن حجر – رحمه الله – وَلِلطَّبَرَانِيِّ مِنْ طَرِيق ضَعِيف عَنْ عَبْد اللَّه بْن شَدَّاد عَنْ دِحْيَة فِي هَذِهِ الْقِصَّة مُخْتَصَرًا ، فَقَالَ قَيْصَر : أَعْرِف أَنَّهُ كَذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَا أَسْتَطِيع أَنْ أَفْعَل ، إِنْ فَعَلْت ذَهَبَ مُلْكِي وَقَتَلَنِي الرُّوم . وَفِي مُرْسَل اِبْن إِسْحَاق عَنْ بَعْض أَهْل الْعِلْم أَنَّ هِرَقْل قَالَ : وَيْحك ، وَاَللَّه إِنِّي لَأَعْلَم أَنَّهُ نَبِيّ مُرْسَل ، وَلَكِنِّي أَخَاف الرُّوم عَلَى نَفْسِي ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَاتَّبَعْتُهُ . لَكِنْ لَوْ تَفَطَّنَ هِرَقْل لِقَوْلِهِ -ﷺ- فِي الْكِتَاب الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْهِ " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " وَحَمَلَ الْجَزَاء عَلَى عُمُومه فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة لَسَلِمَ لَوْ أَسْلَمَ مِنْ كُلّ مَا يَخَافهُ . وَلَكِنَّ التَّوْفِيق بِيَدِ اللَّه تَعَالَى (٢)

و الناظر إلى حال كثير من ملوك المسلمين في الآونة الأخيرة يجدهم ينحون كتاب الله و سنة رسوله -ﷺ- عن العمل بهما خوفا على مناصبهم و كراسيهم فمنعهم ذلك الخوف من قبول الحق

---

١ – أخرجه البخاري ح ٦

٢ – فتح الباري لابن حجر – (ج ١ / ص ٧)

خامسا: مانع الشهوة والمال

علم -بارك الله فيك-:أن الهداية إلى الصراط المستقيم هي أعظم نعمة يمنّ الله بها على عبدٍ من عباده، بها تسعد النفوس، وتنجو الأرواح، وتستقيم الحياة. ومع جلاء الحق ووضوح محجته، فإن العقول تتساءل أحيانـًا: لماذا يضلّ كثير من الناس بعد أن تبين لهم الهدى؟ ولماذا يعرض أقوام عن نور الحق وهم يرونه عيانـًا؟

السر في ذلك يكمن في وجود "الموانع" التي تحجب القلوب عن الاستجابة، ومن أعظم هذه الموانع وأشدّها فتكـًا بالدين والأخلاق: مانع الشهوة ومانع المال.

فالشهوة تغشي البصر وتطمس البصيرة، تجعل الإنسان عبداً لهواه، يُقدّم لذّة ساعةٍ زائلة على نعيم الأبد.

والمال الحرام أو حب المال المتأصل في النفوس يعمي صاحبه عن قبول الحق إذا كان في قبوله مظنّة ذهاب دريهماتٍ أو زوال مكاسب دنيوية. وحين يغلب حب المال والشهوة على قلب الإنسان، يرخص لديه الدين، ويهون عليه التخلّي عن الصراط المستقيم مقابل عرضٍ من الدنيا زائل.

فلنحذر –عباد الله– من هذين القيدين الثقيلين اللذين يكبّلان النفس البشرية عن اللحاق بركب الهداية، ولنطهر قلوبنا من تعلّقات العاجل، لعلنا نكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

هيا لنرى أقواما ضلوا وحادوا عن الصراط المستقيم لمال أو لشهوة سيطرت على قلوبهم وأعمت أبصارهم وأصمت آذانهم.....

قارون – عليه لعنة الله – الذي منعه من قبول دعوة موسى – عليه السلام –هو ما كان فيه من غناء و ثراء فاحش صده عن الإيمان يقول الله تعالى {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا

لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[القصص:٧٦-٨٣]

يقول السعدي – رحمه الله – {إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من اللّه بحالي، يعلم أني أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني اللّه تعالى؟ قال تعالى مبينا أن عطاءه، ليس دليلا على حسن حالة المعطي: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا} فما المانع من إهلاك قارون، مع مُضِيِّ عادتنا وسنتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟

{وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} بل يعاقبهم اللّه، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولا وليس ذلك دافعا عنهم من العذاب شيئا، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمرا على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحا بطرا قد أعجبته نفسه، وغره ما أوتيه من الأموال.

{فَخَرَجَ} ذات يوم {فِي زِينَتِهِ} أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بِزَّتُهُ القلوب، واختلبت زينته

النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

فـ { قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها، { يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ } من الدنيا ومتاعها وزهرتها { إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } وصدقوا إنه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهيا إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا، دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم، بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها، لَمِنْ أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية.

{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها: {وَيْلَكُمْ} متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم: {ثَوَابُ اللَّهِ} العاجل، من لذة العبادة ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه. والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين {خَيْرٌ} من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلَقَّى ذلك ويوفق له {إِلا الصَّابِرُونَ} الذين حبسوا أنفسهم على طاعة اللّه، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن

تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب اللّه على الدنيا الفانية.

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازَّيَّنَت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ} جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد اللّه، أنزله اللّه أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه، ومتاعه.

{فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ} أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود {يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ} أي: جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر.

{ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ } أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: { يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ } { يَقُولُونَ } متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: { وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ } أي: يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلا على خير فيه، وأننا غالطون في قولنا: { إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } و { لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا } فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته { لَخَسَفَ بِنَا } فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول.

{وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} أي: لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(وهو الذي منع كثيرا من أهل الكتاب من الإيمان خوفا من بطلان مأكلهم وأموالهم التي تصير إليهم من قومهم ، وقد كان كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته ، فيدخلون عليه منها، فكانوا يقولون لمن يحب الزنا : إنه يحرم الزنا ، ويقولون لمن يحب الخمر : إنه يحرم الخمر، وبه صدوا الأعشى الشاعر عن الإسلام ، وأخبروه بأنه يحرم الخمر ، فرجع وهو في طريقه إلى الرسول ، فوقصته ناقته فسقط فمات .

وقد قال بعض أهل العلم : لقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب عن الإسلام فكان آخر ما قال لي أحدهم: أنا لا أترك الخمر وشربها ، وإذا أسلمت حلتم بيني وبينها وجلدتموني على شربي .

وقال لي أيضا آخر بعد أن عرضت عليه الإسلام : إن ما قلت حق ، ولكني لي أقارب أرباب أموال وإني إذا أسلمت لم يصل إلي منها شيء ، وأنا آمل أن أرثهم . ولا ريب أن هذا القدر في نفوس خلق كثير من الكفار، فإذا اجتمع في حقهم قوة داعي الشهوة والمال مع ضعف داعي الإيمان ، فلا ريب أن العبد يجيب داعي الشهوة والمال ((ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض)) الأحقاف : ٣٢ ،)

و حب الشهوة من أكبر العوائق التي تقف في طريق هداية العبد و ذلك لأن الشهوة إذا دخلت إلى قلب العبد استعبدته و أذلته فصار عبدا مخلصا لها فكم من إنسان تدعوه إلى الالتزام و سلوك طريق المهتدين إلا أنه لا يسمع إلا ما

شرب من هواه و صدق الله تعالى إذ يقول {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)

يقول القطان – رحمه الله –أرأيتَ أيها الرسُول مَن ركب رأسه، وترك الهدى، وأطاع هواه فجعله معبوداً له، وضل عن سبيل الحق وهو يعلم بهذا السبيل {على عِلْمٍ} منه ثم مضى سادِراً في ملذّاته غير آبهٍ بدين ولا خلق!؟

لقد أغلقَ سمعه فلا يقبل وعظـًا، وقلبه فلا يعتقد حقا {أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}، يا مشركي قريشٍ هذا؟

إنها صورة عجيبة من الواقع الذي نراه دائمـًا، وما أكثر هذا الصنف من الناس. وإتباع الهوى هذا قد ذمّه اللهُ في عدة آيات من القرآن الكريم. {واتبع هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب} [الأعراف: ١٧٦] {واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطـًا} [الكهف: ٢٨] {وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله} [ص: ٢٦]. نسأل الله السلامة. (١)

وقال وهب–رحمه الله–: إذا شككت في خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك فأته.

---

١ – تفسير القطان –(ج ٣ / ص ٢٢٩).

وقال سهل التستري: هواك داؤك فإن خالفته فدواؤك، وفي الحديث " العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى "

وقال أبو عمران موسى بن عمران الأشبيلي الزاهد:

فخالف هواها واعصها إن من يطع هوى نفسه ينزع به شر منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده وترم به في مصرع أي مصرع

وقد ذم ذلك جاهلية أيضـًا، ومنه قول عنترة:

إني امرؤ سمح الخليقة ما جد لا أتبع النفس اللجوج هواها

ولعل الأمر غني عن تكثير النقل .)[1]

[1] – تفسير الألوسي – (ج ١٩ / ص ٢٣).

سادسا: ومن موانع الهداية: مانع محبة الأهل والأقارب والعشيرة، الوطن

لقد فطر الله الإنسان على حب أهله، والميل إلى عشيرته، والتعلق بأوطانه ومساقط رأسه، وهي غرائز نبيلة تدفع إلى التراحم والتآلف والبناء.

غير أن هذه المحبة الفطرية قد تتحول -حين تفقد بوصلة الشرع-إلى قيد ثقيل يمنع صاحبها من قبول الحق والانقياد للصراط المستقيم.

الكثير من الناس قد يتبين لهم الهدى ويعرفون الحق، لكنهم يقفون مترددين خوفـًا من لومة عشيرة، أو خشيةً من مقاطعة أهل، أو تعصبـًا لعادات الأوطان والآباء التي خالفَت هدي الله. وحين تصبح مجاملة الأقارب أو الحفاظ على رضا العشيرة ثقيلاً في ميزان الإيمان على حساب طاعة الله، يقع الإنسان في فخ العصبية المقيتة والردّ للحق لأجل الخلق.

فلنحذر -عباد الله- من أن تكون علائقنا القريبة سداً منيعـًا يحول بيننا وبين الهداية، ولنجعل محبة الله ورسوله والتمسك بالصراط المستقيم هي الميزان الحق الذي تُقاس به كل المحابّ والعلائق.

فكم من أناس ضلوا في هذه الحياة لأنهم قدموا أهليهم على رضا ربهم و الله تعالى يخبرنا أن من قدم هذه الأشياء فليس منه في شيء يقول سبحانه – و تعالى – {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤]

يقول السعدي – رحمه الله –وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة اللّه ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من اللّه ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه اللّه ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا للّه ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه اللّه، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه.)[1]

فهذا أبو طالب عم النبي– ﷺ - الذي منعه من الإيمان بالنبي – ﷺ – هو حب الآباء و ما كانوا عليه ،على الرغم من انه كان يعلم علم يقن ان النبي هو رسول الله و لكن كانت آخر كلمة قالها هو على ملة عبد المطلب

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بن أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – لِأَبِي طَالِبٍ: (يَا عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً

[1] – تفسير السعدي – (ج ١ / ص ٣٣٢)

أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ). فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وعبد الله بن أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقَالَ رسول الله - ﷺ -: (أما وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ). فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ} الآية. (١)

ولقد نهى الله تعالى عن مولاة مَنْ آمن و لم يهاجر و رضي بالجلوس بين الأهل و العشيرة فقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: ٧٢]

يقول السعدي – رحمه الله –هذا عقد موالاة ومحبة، عقدها اللّه بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل اللّه، وتركوا أوطانهم للّه لأجل الجهاد في سبيل اللّه، وبين الأنصار الذين آووا رسول اللّه – ﷺ -وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم وتمام اتصال بعضهم ببعض.

---

١ – أخرجه البخاري (٣٨٨٤) و (٤٦٧٥)، ومسلم (٢٤) (٤٠).

{وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا} فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال فلما لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء.

لكنهم {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ} أي: لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم { فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ } والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم. (١)

وجعل من علامات الهداية و الإيمان البراءة من الأهل و العشيرة إن كانوا يحاربون الله و رسوله فقال {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢].

يقول العلامة الشنقيطي – رحمه الله –وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي والزجر العظيم عن مولاة أعداء الله جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْرَاهِيمَ والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء

---

١ – تفسير السعدي – (ج ١ / ص ٣٢٧).

أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ } [الممتحنة : ٤] . وقوله تعالى : { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح : ٢٩] وقوله تعالى : { فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين } [المائدة : ٥٤] .

وقوله تعالى: {وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة: ١٢٣] الآية.

وقوله تعالى: {ياأيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ٧٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَلَوْ كانوا آبَآءَهُم } زعم بعضهم أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قائلاً : إنه قتل أباه كافراً يوم بدر أو يوم أُحد ، وقيل : نزلت في ابن عبد الله بن عبد الله بن أُبي المنافق المشهور ، وزعم من قال : إن عبد الله استأذن النبي - ﷺ - في قتل أبيه عبد الله بن أبي فنهاه ، وقيل : نزلت في أبي بكر ، وزعم من قال إن أباه أبا قحافة سب النبي - ﷺ - قبل إسلامه فضربه ابنه أبو بكر حتى سقط .

وقوله: {أو أبناءهم} زعم بعضهم أنها نزلت في أبي بكر حين طلب مبارزة ابنة عبد الرحمن يوم بدر.

وقوله: {أَوْ إِخْوَانَهُمْ} زعم بعضهم أنها نزلت في مصعب بن عمير قالوا: قتل أخاه عبيد بن عمير .

وقال بعضهم: مر بأخيه يوم بدر يأسره رجل من المسلمين، فقال: شدد عليه الأسر، علم أن أمه ملية وستفديه.

وقوله: {أَوْ عَشِيرَتُهُمْ} قال بعضهم: نزلت في عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، لما قتلوا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، في المبارزة يوم بدر، وهم بنو عمهم، لأنهم أولاد ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. ...، وقوله تعالى: {أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان} [المجادلة: ٢٢] أي ثبته في قلوبهم بتوفيقه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تثبيت الإيمان في قلوبهم جاء موضحاً في قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧] ([1]).

فيرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم، وهذا سبب بقاء خلق كثير من الكفار بين قومهم وأهليهم وعشائرهم، وهذه الحالة تحصل كثيرا بين اليهود والنصارى، وكيف أنهم ينبذون كل من خالف مذهبهم ويعادونه كلهم، مما جعل كثيرا من أبنائهم وممن ينتسب إليهم يتركون الحق بعد معرفته ويعرضون عنه .

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

[1] – أضواء البيان – (ج ٨ / ص ١٦٦).

عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهَةٍ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- يَقُولُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقُهُ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَدَعُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ مَوْلِدَكَ فَتَكُونُ كَالْفَرَسِ فِي طُولِهِ؟ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَتُقْتَلُ فَتَتَزَوَّجُ امْرَأَتُكَ وَتَقْسِمُ مِيرَاثَكَ؟ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- : «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ضَمِنَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ إِنْ قُتِلَ أَوْ مَاتَ غَرَقًا أَوْ حَرْقًا فَأَكَلَهُ السَّبُعُ» (١)

١ -«مسند أحمد» (٢٥/ ٣١٦ ط الرسالة) «وأخرجه النسائي في "المجتبى" ٦/ ٢١، وابن حبان (٤٥٩٣)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤٢٤٦) من طريق هاشم بن القاسم، بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" ٤/ ١٨٧ - ١٨٨، وابن أبي شيبة ٥/ ٢٩٣، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (١٠٤٣) (٢٦٧٥)، وفي "الجهاد" (١٣)، والطبراني في "الكبير" (٦٥٥٨)»

****

سابعا: مانع الألفة والعادة والمنشأ

اعلم -زادك الله علما -:أن من أعظم الشبهات النفسية التي صدّت الأمم الغابرة عن قبول الحق على مرّ التاريخ: هي حجة الألفة والتقليد والنشأة الأولى. ولقد حكى القرآن الكريم هذا الداء العضال في قوله تعالى على ألسنة المكذبين: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ).

فالإنسان بطبيعته يَأْلَف ما نشأ عليه، وتستقر في وجدانه العادات والتقاليد التي درج في أحضانها، حتى تصير عنده بمنزلة الحق المسلّم به، فإذا جاءه الهدي الإلهي أو الصراط المستقيم ليصدم شيئًا من تلك الموروثات التي خالفت شرع الله، استثقلت نفسه التغيير، ورفضت الانقياد، واحتجت بمجرد الألفة والاعتياد. وهنا يقع المحذور؛ إذ تُجعل العادة هي الميزان الذي يُقاس به الحق والباطل، لا كتاب الله ولا سنة نبيه - ﷺ- .

اعلم -علمني الله و إياك -أهلكت كثيرا من الأمم و عادت كثيرا من الرسل عادة التقليد و الموروث عن الآباء و الأجداد {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ

وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [الأنبياء: ٥١-٥٦].

و قال سبحانه {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) ✷ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الزخرف: ٢٣-٢٥] } [الزخرف: ٢٢-٢٥]).

وبسبب تقليدهم فهم لا يحكمون لهم رأيًا ولا يعملون لهم عقلاً ولا يشغلون لهم فكرًا في البحث عن الحق والهدى.

ولذلك تاهوا في أودية الجاهلية. فأهل الجاهلية جعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول الحق الذي جاء به المصطفى - ﷺ - أنه لم يكن عليه أسلافهم ولا عرفوه في آبائهم وأجدادهم فانظروا عباد الله إلى سوء مداركهم وجمود قرائحهم وضعف عقولهم وإن زعموا أنهم أصحاب العقول والألباب وإلا فالعقول السلمية والفطر المستقيمة تأنف من إتباع ما لم تقطع بفائدته ولم تتيقن من صوابه

وما أكثر الذين يرتكبون المحرمات بحجة أن غيرهم يفعلونها فهناك من يتعامل بالربا مثلاً لأن فلانًا من الناس يفعله ويقول: لو كان محرمًا لم يفعله فلان.

وضرب بالأدلة من الكتاب والسنة عرض الحائط وقدم التقليد عليهما.

وبعض الناس يستمع آلات اللهو وقد أدخلها إلى بيته بحجة أن فلانًا من الناس قد أدخلها، وكم نرى من يشرب الدخان المحرم وهو يقول: لو كان محرمًا لما أتى إلينا ولما سمح ببيعه في أسواقنا، وكم من الناس من أدخل الخادمة إلى بيته والسائق يخلو بنسائه بحجة أن فلانًا من الناس فعل هذا، وتلك هي طريقة الجاهليين وأهل الضلال والمعاندين وأتباع العادات والتقاليد {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: ١٧٠].

ثامنا: الغفلة: و من موانع الهدية الغلفة التي تعتري الإنسان أن يغفل الإنسان عن مهمته التي خلقه الله تعالى من أجلها و أن يغفل عن حقيقة الدنيا الفانية و أن يغفل عن عدوه الذي يتربص به الدوائر .

فتراه يبصر ولكنه لا يرى

ويسمع ولكنه لا يدرك.

له قلب أصابه العمى كما قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:١٧٩].

يقول ابن عطية – رحمه الله وصفت هذه الصنيفة الكافرة المعرضة عن النظر في آيات الله بأن قلوبهم لا تفقه، والفقه الفهم، وأعينهم لا تبصر، وآذانهم لا تسمع، وليس الغرض من ذلك نفي هذه الإدراكات عن حواسهم جملة وإنما الغرض نفيها في جهة ما كما تقول: فلان أصم عن الخنا.

ومنه قول مسكين الدارمي:

أعمى إذا ما جارتي خرجت حتى يواري جارتي السترُ

وأصم عمّا كان بينهما عمداً وما بالسمعِ من وَقْرِ

ومنه قول الآخر:

وعوراء الكلام صممت عنها ولو أني أشاء بها سميع

وبادرة وزعت النفس عنها وقد بقيت من الغضب الضلوع

ومنه قول الآخر في وصاة من يدخل إلى دار ملك:

وادخل إذا ما دخلت أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرسْ

فكأن هؤلاء القوم لما لم ينفعهم النظر بالقلب ولا بالعين ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ استوجبوا الوصف بأنهم { لا يفقهون } و { لا يبصرون } و { لا يسمعون } وفسر مجاهد هذا بأن قال : لهم قلوب لا يفقهون بها شيئًا من أمر الآخرة وأعين لا يبصرون بها الهدى وآذان لا يسمعون بها الحق ، و { أولئك } إشارة إلى من تقدم ذكره من الكفرة وشبههم بالأنعام في أن الأنعام لا تفقه قلوبهم الأشياء ولا تعقل المقاييس ، وكذلك ما تبصره لا يتحصل لها كما يجب ، فكذلك هؤلاء ما يبصرونه ويسمعونه لا يتحصل لهم منه علم على ما هو به حين أبصر وسمع ، ثم حكم عليهم بأنهم { أضل } ، لأن الأنعام تلك هي بنيتها وخلقتها لا تقصر في شيء ولا لها سبيل إلى غير ذلك ، وهؤلاء معدون للفهم وقد خلقت لهم قوى يصرفونها وأعطوا طرقًا في النظر فهم بغفلتهم وإعراضهم يلحقون أنفسهم بالأنعام فهم أضل على هذا ، ثم بين بقوله : { أولئك هم الغافلون } الطريق الذي به صاروا أضل من الأنعام وهو الغفلة والتقصير .([1])

والغفلة عدم الشعور بما يحق الشعور به، وأطلق على ضلالهم لفظ الغفلة بناء على تشبيه الإيمان بأنه أمر بيّن واضح يعد عدم الشعور به غفلة، ففي قوله: {هم الغافلون} استعارة مكنية ضمنية، والغفلة من روادف المشبه به، وفي وصف {الغافلون} استعارة مصرحة بأنهم جاهلون أو منكرون.

[1] – المحرر الوجيز – (ج ٣ / ص ١٢٧).

وقد وقع التدرج في وصفهم بهذه الأوصاف من نفي انتفاعهم، بمداركهم ثم تشبيههم بالأنعام، ثم الترقي إلى أنهم أضل من الأنعام، ثم قصر الغفلة عليهم.

فالغفلة حجاب وهي الغفلة عن ذكره سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والغفلة عن الآخرة؛ والغفلة عن تعاليم الرسول- ﷺ- والغفلة عن منهج الله.

****

تاسعا: العصبية والتعصب والجمود الفكري

إن أعظم ما كرم الله به الإنسان هو العقل المستنير الذي يبحث عن الحق ويدور معه حيث دار.

إلا أن هذا العقل قد يصاب بآفات قاتلة تعطل وظيفته، وتطمس بصيرة صاحبه، لتجعله يعيش في غبش من التخبط والضلال.

ومن أشد هذه الآفات فتكًا، وأعظمها حائلاً بين العبد ونور التوفيق: العصبية والتعصب والجمود الفكري.

إن التعصب —سواء كان للآباء، أو القبيلة، أو الحزب، أو المذهب، أو الأفكار الموروثة— يمثل عمى نفسيًا يجعل المرء يرى الحق محصوراً في دائرته الضيقة، ويرفض كل ما سواها دون نظر أو دليل. وحين يقترن هذا التعصب بالجمود الفكري، يتحول عقل الإنسان إلى حصن مغلق لا تنفذ إليه أنوار

الحجة، ويصبح منطقه كمنطق أهل الجاهلية الذين قال الله عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

إن المتعصب لا يبحث عن الحقيقة، بل يبحث عما يبرر انحيازه القديم، فيجازيه الله سبحانه وتعالى بحرمانه من هداية التوفيق؛ لأن من أغلق سمعه وبصره وفكره عن تدبر آيات الله، طُبع على قلبه فصار من الغافلين. وفي هذه المقدمة، نسلط الضوء على خطر الانغلاق الفكري والعصبية المقيتة، وكيف يتحولان إلى حُجب غليظة تحجب الإنسان عن قبول الحق والانقياد لصراط الله المستقيم.

اعلم-بارك الله فيك-أن التعصب للآباء و موروثاتهم و الجموع الفكر المتحجر الذي يعمي صاحبه عن رؤية الحق فيتبعه و رؤية الباطل فيجتنبه قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقال هؤلاء المعتدون: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٣] وجدوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون، فلو سمع أحدهم ألف حديث وكل آية، لم يخرجوا عن طريق آبائهم ومشايخهم إلا من أدركه الله برحمته، وأنقذه من البدعة والضلالة بقدرته، لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، ولأن البدع قد رسخت وطبعت على قلوبهم، وألفتها واستحسنتها نفوسهم. قال الله تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر: ٨].

كما قال بعضهم:

يا غاديًا في جهله ورائحًا إلى متى تستحسن القبائحا

يا عجبًا منك وأنت مبصر -كيف تجتنب الطريق الواضحا

قال المولى: {مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأعراف: ١٨٦]، فقد استحسنت البدع هذه الطائفة، ليس لها من دون الله كاشفة.

وإذا أراد الله أن يخرج عبده من الضلالة عرَّفه كيف يخرج. فإن قيل لأحدهم من جهة التذكرة والنصح والأمر بالمعروف: إن هذه الطريقة التي أنت سالكها ما هي طريق نبيك، ولا طريق أصحابه، ولا طريق التابعين؛ فإن خرج عنها فهو صديق، وإن لم يخرج عنها فهو قليل التوفيق. وإن جحد السنة فهو زنديق؛ وقد تشبه بالكفار.

وقال محمد بن إسماعيل رحمه الله:

كذلك أهل للكتاب تتابعوا على ملة الآباء فردا على فرد

وهيهات كل في الديانة تابع أباه ، كأن الحق في الأب والجد

وقد قال هذا قبلهم كل مشرك فهل قدحوا هذي العقيدة عن زند

ومن تشبه بهم في الدنيا، حُشر معهم يوم القيامة في النار؛ ولأجل ذلك تبرأ منه النبي المختار صلى الله عليه صلاةً دائمة إلى يوم القرار بقوله: «من تشبَّه بغيرنا فليس منَّا» (١).

ومنه ما نراه اليوم من الجمود على انطباعات متسرعة، ومواقف سابقة، وعادات بالية، وعداءات فكرية وتاريخية يجمد عليها المرء، وتَحُول دون سلوك طريق الهداية والحق.

قدم طلحة النميري إلى اليمامة، بعد أن ادَّعى مسيلمة الكذاب النبوةَ، فقال: أين مسيلمة؟ قالوا: مَهْ، رسول الله، فقال: لا حتى أراه، فلما جاءه، قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم، قال: من يأتيك؟ قال: رحمن، قال: أفي نور أو في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنك كذَّاب، وأن محمدًا صادق، ولكن كذَّاب ربيعةَ أحبُّ إلينا من صادقِ مُضَرَ.

قال دريد بن الصمة :

أَمَرْتُهُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلا ضُحَى الغَدِ

فلمَّا عَصَوْني كنْتُ منهُمْ وقد أرَى غِوَايَتَهُمْ وأنَّني غيرُ مُهتَدِ

ومَا أنَا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غوَتْ غوَيْتُ وإنْ تَرشُدْ غزَّيَةُ أَرْشُدِ

---

١ –أخرجه الترمذي في جامعه (٢٦٩٥)، والطبراني في معجمه الأوسط (٧٣٨٠) من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال الترمذي عقبه: هذا حديث إسناده ضعيف، وروى ابن المبارك هذا الحديث عن ابن لهيعة فلم يرفعه.

فالشاعر يجسد مصدر فخاره وفي القلب من فخره: ذوبان رأيه في جماعته وإن خالف الحق واقتفى أثر الضلال، فأضحى معيار الأخلاق ما قامت به القبيلة وانتهي الرأي إليه، فجاء الإسلام وحذر من هذا المسلك الذي يقضى على التفكير والإبداع وينمي ظاهرة التقليد والتبعية، فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن أساءوا أسأنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا وإن أساءوا أن لا تظلموا".(١)

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: "لا يتبعن أحدكم دينه رجلاً، إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر".(٢)

والإمعة كما قال أهل اللغة: هو الرجل الذي يكون لضعف رأيه مع كل أحد، المهم ألا يستقل برأي وألا يخالف من فوقه وإن اعتقد بطلان مذهبه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد النخعي:"يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير والناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق... أفٍ لحامل حق لا بصيرة له ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا يدري أين الحق، إن قال أخطأ وإن أخطأ لم يدر، مشغوف بما لا يدري

---

١ – أخرجه الترمذى (٣٦٤/٤، رقم ٢٠٠٧) وقال: حسن غريب. (ضعيف الجامع الصغير ٦٢٧١)) .

٢ –

حقيقته فهو فتنة لمن افتتن به وإن الخير كله من عرفه الله دينه وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف دينه)) ([1])

وعن الإمام أحمد رحمه الله قال: ليوطنن المرء نفسه على أنه إن كفر من في الأرض جميعـًا لم يكفر ولا يكونن أحدكم إمعة))، قيل: وما الإمعة؟، قال: ((الذي يقول: أنا مع الناس، إنه لا أُسوة في الشر"

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لا تكونن إمَّعة. قالوا: وما الإمَّعة؟ قال: يقول: أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت وإن ضلوا ضللت، ألا ليوطِّنّ أحدكم نفسه على أنه إن كفر الناس أن لا يكفر. ([2])

لابد للمرء من عقل يهتدي به في ضوء نص يحتمى به، فلا العقل المجرد يحمي صاحبه، ولا الذوبان مع الغير على الحق والباطل هو العاصم، وقد أحسن من قال:

شمر وكن في أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

[1] – «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ط السعادة» (١/ ٨٠)

[2] – [صفة الصفوة ١/ ١٩٢]

****

عاشرا: الكذب على الله تعالى على رسوله - ﷺ-

أخي القارئ الكريم: إن الهداية نور رباني لا يستقر إلا في القلوب الصادقة التي تتحرى الحق وتنقاد له.

وفي المقابل، فإن هناك مسالك تورد صاحبها المهالك، وتقطع بينه وبين توفيق الله قطعـًا تامـًا، ومن أشنع هذه المسالك وأشدها حظراً: الكذب على الله تعالى وعلى رسوله- ﷺ-.

إن الافتراء على الله بادعاء شريك له، أو بتحليل ما حرم، أو تحريم ما أحل، وكذا اختلاق الأحاديث ونسبتها زيفـًا إلى النبي- ﷺ-، ليس مجرد معصية عابرة، بل هو هدمٌ لأصول الدين وتجرؤٌ على مقام الربوبية والرسالة.

وحين يستمرئ الإنسان الكذب في أقدس مقامات الدين، فإنه يمارس أقصى درجات الظلم لنفسه وللخلق؛ ولذلك حكم الله سبحانه في محكم كتابه بسلب الهداية عن هذه الفئة كعقوبة حتمية وجزاء عادل، فقال جل وعلا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]، وقال سبحانه بكل وضوح: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

إن من اتخذ الكذب والافتراء مطية له، يطبع الله على قلبه ويسلبه أدوات التمييز، فيعيش في ظلمات تيهِهِ وضلاله، ويُحرم من معانقة نور الحق والهدى. وفي هذه المقدمة، نبين كيف يتحول الافتراء والكذب على الوحيين إلى جدار خرساني يحجب العبد عن التوفيق في الدنيا، ويورثه الخسران المبين في الآخرة.

قال-جل ذكره-{وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر: ٢٨]

يقول الشيخ محمد الأمين-رحمه الله-: أي إن كان كاذبًا في قيله: أن الله أرسله إليكم ليأمركم بعبادته، وترك دينكم الذي أنتم عليه .. فإنما إثم كذبه عليه دونكم، وإن يك صادقًا في قيله ذلك ..... أصابكم الذي أوعدكم به من العقوبة على مقامكم على الدين الذي أنتم عليه مقيمون، فلا حاجة بكم إلى قتله فتسخطوا ربكم سخطين: سخطًا على الكفر، وسخطًا على قتل رسوله، وفي قوله: {بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ} مبالغة في التحذير، فإنه إذ حذرهم من بعض العذاب .. أفاد أنه مهلك مخوف، فما بال كله إلى ما فيه من الإنصاف وإظهار

عدم التعصب. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} وهذا من تمام كلام الرجل المؤمن، والمسرف: هو الذي يتجاوز الحد في المعصية، أو هو السفاك للدم بغير حق، والكذاب: هو الذي يكذب مرةً بعد أخرى، وقيل: هو الكذاب على الله سبحانه، لأن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره، وهو احتجاج آخر ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفًا كذابًا ... لما هداه الله تعالى إلى البينات، ولما أيده بتلك المعجزات.

وثانيهما: أنه إن كان كذلك .... خذله الله تعالى وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله، ولعله أراهم وهو عاكف على المعنى الأول لتلين شكيمتهم، وقد عرّض به لفرعون، لأنه {مُسْرِفٌ} حيث قتل الأبناء بلا جرم {كَذَّابٌ} حيث ادعى الألوهية، لا يهديه الله سبيل الصواب، ومنهاج النجاة، بل يفضحه ويهدم أمره([1])

ويقول السعدي –رحمه الله– {إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ} أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. {كَذَّابٌ} بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا

[1] – تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٢٥/ ١٧٢).

يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.(١)

****

الحادي عشر: استحباب الحياة الدنيا على الآخرة:

أخي المسلم: إن أعظم ما يُبتلى به العبد في سيرهِ إلى الله تعالى هو اختلال الموازين في قلبه، بحيث تطغى المادة على الروح، وتتقدم الفانية على الباقية. ومن أشد الحجب الغليظة وأخطر العوائق القاطعة التي تحول بين العبد وبين نور الهداية والتوفيق، هي استحباب الحياة الدنيا وإيثارها على الآخرة.

إن تقديم الدنيا على الآخرة ليس مجرد تقصير في الطاعة، بل هو مرض قلبي وعلة نفسية تفسد التصورات، وتطمس البصيرة، وتجعل صاحبها يرى العاجلة هي الغاية والنهاية، والآجلة فضلاً مستغنى عنه.

وحين يتغلغل حب الدنيا في سويداء القلب، ويعمى المرء عن إبصار حقائق الإيمان، يجازيه الله تعالى بعقوبة من جنس عمله، فيصرف قلبه عن قبول الحق والانقياد له، ويسلبه التوفيق والنور، كما قرر الحق سبحانه هذه السنّة الربانية في

---

١ – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٣٧).

كتابه الكريم قال –جل ذكره– {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [النحل: ١٠٦-١٠٩]

يقول السعدي –رحمه الله–: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ} حيث ارتدوا على أدبارهم طمعا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه وزهدا في خير الآخرة، فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية فلم يهدهم لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

{لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة وفاتهم النعيم المقيم وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها. (١)

---

١ – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥٠)

حب الدنيا وإيثارها على الآخرة ذنب عظيم لا يسأل الناس المغفرة منه، ذلكم لأن حب الدنيا وإيثارها على الآخرة يقسي القلب، ويجرئ على المشتبه ثم على الحرام، ويسبب التشاحن والبغضاء والعداوة والقطيعة بين أهل الإسلام، حتى لا يبذلوا نصيحة، ولا يؤدوا حقًا، ولا يأمروا بمعروف، ولا ينهوا عن منكر، وحتى يكون الفاسق الذي ترجى دنياه، أحب إلى المشتغل بالدنيا من الأخ الصالح، لخلاف بينه وبينه على شيء من حطام دنياه، فتبًا لها من فتنة أهلكت كثيراً من الأولين، وستهلك أضعاف أضعافهم من الآخرين، وتجعلهم يوم القيامة من الخاسرين.

من أحب دنياه أضرت بآخرته، ومن اهتم بآخرته كفاه الله شأن دنياه، وحسنت عاقبته، فاشتغلوا بالعمل لآخرتكم تتيسر لكم أمور دنياكم

عن أبان بن عثمان-رضي الله عنهما قال: خرج زيد بن ثابت من عند مروان بنصف النّهار، قلت: ما بعث إليه هذه السّاعة إلّا لشيء سأل عنه، فسألته فقال: سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمعت رسول الله - ﷺ-يقول: «من كانت الدّنيا همّه، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدّنيا إلّا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيّته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدّنيا وهي راغمة». (١)

١ -ابن ماجة (٤١٠٥) واللفظ له قال في الزوائد: صحيح ورجاله ثقات، وهو عند الترمذي (٢٤٦٥) من رواية أنس ابن مالك- رضي الله عنه وبدون قصة وسكت عنه.

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله - ﷺ-: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى».(١)

وممن أثر الدنيا على الآخرة فضل عن طريق الهداية و استحب طريق الكفر و الغواية قارون -لعنه الله تعالى -يقول جل ذكره- قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا

---

١ - «مسند أحمد» (٣٢/ ٤٧١ ط الرسالة «وأخرجه عبد بن حميد (٥٦٨)، وابن أبي عاصم في "الزهد" (١٦٢)، وابن حبان (٧٠٩)، والقضاعي في "مسند الشهاب" (٤١٨)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (١٠٣٣٧)، و"الآداب" (٩٩٣)، و"الزهد الكبير" (٤٥١)، والبغوي في "شرح السنة" (٤٠٣٨)»

يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨٣].

وها هي قرية أحبت المال و صدها عن طاعة الكبير المتعال فضلت و اهكلها الله تعالى تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

وفي سورة الكهف ذكَرَ الله قصةَ صاحب الجنَّتَينِ اللتينِ غرَّتاه وأبطرتاه، فتحوَّلتا إلى هلاكٍ وبَوارٍ؛ قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف: ٣٢]، إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٢].

وفي سورة سبأ ذكر تعالى خبرَ قومِ سبأ في مأرب القريبة من ها هنا، الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر وجحود النعمة، وسئموا الاستمرار فيها لما لم يشكروها، فغرقت تانك الجنتان بأموالهم وآمالهم وأُبدلوا عنهما ثمرًا مرًّا لا ينفع، وتفرَّقوا في الجزيرة العربية شذَرَ مَذَرَ حتى ضرب العرب المثل بتفرُّقهم بعد ذَهاب نِعْمَتِهم، فقيل: تفرَّقُوا أيدي سبأ؛ فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ

ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٥، ١٦]، إلى قوله: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ: ١٩].

وفي سورة القلم ذكر قصة أصحاب الحديقة المثمرة الذين منعوا حق الله فيها، فصارت بعد نية السوء إلى ليل أليل من الهلاك والاحتراق؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم: ١٧] إلى قوله: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ [القلم: ١٩، ٢٠].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء:٦٦-٧٠].

****

الثاني عشر: مولاة اليهود والنصارى

اعلم -بارك الله فيك -إن من أعظم القواطع التي تحول بين العبد وبين نور الهداية والتوفيق، وتطمس بصيرة الإنسان فينغمس في تيه الضلال، هي موالاة اليهود والنصارى واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين.

إن موالاة أعداء الدين من اليهود والنصارى ليست مجرد معصية عابرة، بل هي انتكاسة في الولاء والبراء، وخلل عميق في أصل الانتماء للعقيدة.

وحين يميل قلب العبد إليهم بالمحبة والنصرة والاتباع على حساب دينه وأمته، فإنه يقطع حبال الصلة بالله تعالى، ويستبدل بنور الإيمان ظلمة التبعية.

ولأن الجزاء من جنس العمل، فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب من تولاهم بأن يحرمه من هدايته وتوفيقه، ويسلبه رشده، فيتركه في حيرته يتخبط؛ لأن من ابتغى العزة والهداية في غير الله ورسوله والمؤمنين، أذله الله وأضله، كما قرر الحق سبحانه هذه الحقيقة الكونية الإيمانية في محكم كتابه يقول –جل ذكره– {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ } [المائدة: ٥١ – ٥٣].

قال أبو جعفر–رحمه الله –: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهَى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاءَ على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرَهم، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًّا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزُّب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان.(١)

١ – تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٠/ ٣٩٨)

(إن الله لا يهدي القوم الظالمين) هذا تعليل للوعيد، وبيان لسببه؛ وهو أن من يوالي أعداء المؤمنين الذين نصبوا لهم الحرب، وينصرهم أو يستنصر بهم فهو ظالم بوضعه الولاية في غير موضعها، ولن يهتدي مثله إلى الحق والنجاة أبدا.

النتائج والعواقب الشرعية

اللحاق بهم: يُعتبر المتولي لهم في حكمهم وملتهم إذا نصرهم على المسلمين ورضي بدينهم.

حبط الأعمال: تبطل أعمال من يواليهم وينقض عرى الإيمان، ويصبح من الخاسرين.

الظلم وضياع الهداية: يضع الموالي نفسه في زمرة الظالمين لنفوسهم، لأن الله لا يهدي القوم الظالمين.

الندامة: تظهر ندامة من يفعل ذلك حين ينكشف الحق ويزول الخوف المزعوم الذي دفعهم للموالاة.

يقول سيد قطب- رحمه الله- إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنها يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية وتصطدم- من ثم-

بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل في معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب.. بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة.. وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم. وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة. وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم.

وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له

البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له. (١)

قال محمد بن إسحق: فحدثني أبي إسحق بن يسار، عن عبادة، عن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله- ﷺ- تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وكان أحد بني عوف بن الخزرج. له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي فجعلهم إلى رسول الله- ﷺ- وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله أبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآية في المائدة: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» إلى قوله: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ» (٢)

---

١ – في ظلال القرآن (٢/ ٩٠٩)

٢ – «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٩٧ ط التربية والتراث) «سيرة ابن هشام ٣: ٥٢، ٥٣.»

❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊

الثالث عشر: الرياء

أخي القارئ الكريم –اعلم بارك الله فيك–أن الإخلاص يُعدّ لله سبحانه وتعالى يُعدّ أساس قبول الأعمال ومفتاح النور والهدى في قلب الإنسان؛ وفي المقابل، يمثل الرياء آفة خطيرة تحبط الأعمال وتغلق أبواب التوفيق. والرياء – بكونه طلبًا للثناء والمنزلة عند المخلوقات عوضًا عن الخالق – يُعد من أشد موانع الهداية خطورة على القلوب، لأنه ينخر في باطن العبادة فيُفسدها ويحرم صاحبها من نور التبرّي من الهوى.

ويُمثل الرياء حجاباً خفياً يخدع صاحبه؛ فهو يعمل ظاهراً عمل الصالحين، بينما باطنه معلق بأنظار الناس ومثبت على حظوظ النفس، مما يؤدي إلى تآكل الإخلاص وانطماس بصيرة القلب عن إدراك الحق لذاته.

فالرياء من موانع الهدية إلى الطريق المستقيم و إلى الحق القويم الرياء الذي يحبط العمل و يفسده كما يفسد الخل العسل قال -جل ذكره- {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٦٤]

فمن أراد وجه الله والرياء معاً فقد أشرك مع الله غيره في هذه العبادة، أما لو عمل العبادة وليس له مقصد في فعلها أصلاً سوى مدح الناس فهذا صاحبه على خطر عظيم، وقد قال بعض أهل العلم: إنه قد وقع في النفاق والشرك المخرج من الملة.

والرياء له صور عديدة، منها:

١ -الرياء بالعمل، كمراءاة المصلي بطول الركوع والسجود.

٢ - المراءاة بالقول، كسرد الأدلة إظهاراً لغزارة العلم، ليقال: عالم.

٣ - المراءاة بالهيئة والزيِّ، كإبقاء أثر السجود على الجبهة رياء.

وقد وردت أدلة كثيرة تدل على تحريم الرياء وعظم عقوبة فاعله، وأنه يبطل العمل الذي يصاحبه، منها حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه مرفوعـًا: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر))، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: ((الرياء، يقول الله – عز وجل – لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم جزاء؟)) (١)

وحديث محمود بن لبيد رضي الله عنه الآخر، قال: خرج النبي – ﷺ – فقال: ((أيها الناس! إياكم وشرك السرائر)) قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟. قال: ((يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر)) (٢) .

وحديث أبي هريرة في خبر الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، وهم رجل قاتل في الجهاد

حتى قتل، ليقال: جريء، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ليقال: عالم وقارئ، ورجل تصدق ليقال: جواد (٣). رواه مسلم.

---

١ –رواه أحمد (٥/ ٤٢٨) (٢٣٦٨٠)، والطبراني (٤/ ٢٥٣). من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه. قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٥٢): إسناده جيد. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ١٠٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر في ((بلوغ المرام)) (ص٤٤٠): إسناده حسن. وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٩٥١): إسناده جيد.

٢ –رواه ابن خزيمة في ((صحيحه)) (٢/ ٦٧). والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٢/ ٢٩١) وابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٢/ ٢٢٧) والحديث حسنه الألباني في ((صحيح الترغيب)).

٣ –رواه مسلم (١٩٠٥).

الرابع عشر: الشهوات

قد تمنع الشهوة الإنسان من الهداية.

فهو يعلم أن الخمر حرام، لكنه يحبها.

ويعلم أن الزنا حرام، لكنه يتبع شهوته.

ويعلم أن المال الحرام حرام، لكنه يطمع فيه.

وهكذا تتحول الشهوة إلى حاجز بين القلب والحق.

اتباع الشهوات والانكباب عليها يؤول إلى استيلائها على القلب، فيصير القلب عبداً وأسيراً لتلك الشهوات، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسير ما يهواه يصرفه كيف تصرّف ذلك المطلوب. فما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبه وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه؛ فيبقى مستغرقًا في تلك الصورة.. والقلب يغرق فيما يستولي عليه: إما من محبوب وإما من مخوف، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور؛ والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقًا كما يغرق الغريق في الماء) (١) .

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: (من لزم الشهوات لزمته عبودية أبناء

---

١ -- مجموع الفتاوى، ٥٩٤/١٠، ٥٩٥، بتصرف يسير.

الدنيا) (١) .

وإذا كان الإفراط والانهماك في الشهوات مذموماً شرعاً، كما قال عز وجل:

[فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًا]

[مريم: ٥٩] ؛ فكذلك اتباع الشهوات مذموم عقلاً؛ فإن العاقل البصير ينظر في عواقب الأمور، فلا يُؤْثِرُ العاجلة الفانية على الآخرة الباقية.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: (اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً للألم والأذى في العاجل، ومنع لذّات في الآجل) .

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذةٍ يعقبها ألم، وشهوة تُورث ندماً، وكفى بهذا القدر مدحاً للعقل وذماً للهوى.

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالباً، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل؛ فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة) (٢) .

---

١ ـــسير أعلام النبلاء ٩٧/١٠.

٢ ـــ ذم الهوى، لابن الجوزي، ص٣٦، باختصار.

قال أبو الفرج ابن الجوزي بقوله: (بلغني عن رجل كان ببغداد يُقال له: صالح المؤذن، أذّن أربعين سنة، وكان يُعرف بالصلاح، أنه صعد يومـًا إلى المنارة ليؤذن، فرأى بنت رجل نصراني كان بيته إلى جانب المسجد، فافتتن بها، فجاء فطرق الباب، فقالت: من؟ فقال: أنا صالح المؤذن، ففتحت له، فلما دخل ضمها إليه، فقالت: أنتم أصحاب الأمانات فما هذه الخيانة؟ فقال: إن وافقتني على ما أريد وإلا قتلتك. فقالت: لا؛ إلا أن تترك دينك، فقال: أنا بريء من الإسلام ومما جاء به محمد، ثم دنا إليها، فقالت: إنما قلت هذا لتقضي غرضك ثم تعود إلى دينك، فكُلْ من لحم الخنزير، فأكل، قالت: فاشرب الخمر، فشرب، فلما دبّ الشراب فيه دنا إليها، فدخلت بيتـًا وأغلقت الباب، وقالت: اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوّجني منك، فصعد فسقط فمات، فخرجت فلفّته في ثوب، فجاء أبوها، فقصّت عليه القصة، فأخرجه في الليل فرماه في السكة، فظهر حديثه، فرُمي في مزبلة) (١) .

(أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئـًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج

صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم

---

١ ـــ ذم الهوى، ص ٤٠٩.

وصدّه عن الحق، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولّي بهواه ويعزل بهواه) (١) .

قال بعض السلف: القلوب جوّالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحش» (٢)

عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيّب رحمه الله قال: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء، وقال لنا سعيد، وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبتْ إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: ما من شيء أخوف عندي من النساء.(٣)

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار، وسليمان بن يسار رحمهما الله حاجّين من المدينة، ومعهما أصحاب لهم، حتى إذا كانوا بالأبْواء نزلوا منزلاً، فانطلق سليمان، وأصحابه لبعض حاجتهم، وبقي عطاء بن يسار قائمًا في المنزل يصلي قال: فدخلتْ عليه امرأة من الأعراب جميلة، فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجةً، فأوجز في صلاته، ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم. قال: ما هي؟ قالت: قم فأصِبْ مني فإني قد ودِقتُ ولا بعل لي، فقال: إليكِ عني لا تحرقيني ونفسَك بالنار.

---

١ –ذم الهوى، (ص: ٤٧٤)

٢ –روضة المحبين (٣٧٢).

٣ –[صفة الصفوة ٢/ ٤٣٨].

ونظر إلى امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسه، ويأبى إلا ما يريد. قال: فجعل عطاء يبكي ويقول: ويحك إليك عني. قال: اشتد بكاؤه، فلما نظرت المرأة إليه، وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه، قال: فجعل يبكي، والمرأة بين يديه تبكي، فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان من حاجته فلما نظر إلى عطاء يبكي، والمرأة بين يديه تبكي في ناحية البيت بكى لبكائهما لا يدري ما أبكاهما، وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلما أتى رجل، فرآهم يبكون جلس يبكي لبكائهم لا يسألهم عن أمرهم حتى كثر البكاء، وعلا الصوت، فلما رأت الأعرابية ذلك قامت، فخرجت.

قال: فقام القوم فدخلوا، فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة. قال: وكان أسنَّ منه.

قال: ثم إنهما قَدِما مصر لبعض حاجتهما، فلبثا بها ما شاء الله، فبينا عطاء ذات ليلة نائم إذ استيقظ وهو يبكي. فقال سليمان: ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكاؤه. قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة. قال: وما هي؟ قال: لا تخبر بها أحدًا ما دمتُ حيًا: رأيت يوسف النبي - ﷺ-: في النوم، فجئت أنظر إليه، فيمن ينظر إليه، فلما رأيت حسنه بكيت، فنظر إليّ في الناس، فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، ذكرتك وامرأة العزيز وما ابتُليتَ به من أمرها، وما لقيتَ من السجن، وفُرقة يعقوب، فبكيت من ذلك،

وجعلت أتعجّب منه. قال: فهلاّ تعجّبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء؟ فعرفت الذي أراد، فبكيت، واستيقظت باكيًا.

قال سليمان: أيْ أخي، وما كان من حال تلك المرأة؟

فقصّ عليه عطاء القصة، فما أخبر بها سليمان أحدًا حتى مات عطاء، فحدث بها بعده امرأة من أهله قال: وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار رضي الله عنهما. (١)

الخامس: عشر الجهل

اعلم بارك الله فيك-أن الهداية منحة ربانية مشروطة بوعي القلب وإقباله على الحق بمعرفة وبصيرة، ولذلك كانت أول آية نزلت من القرآن الكريم تأمر بالقراءة والعلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. وفي المقابل، يقف الجهل كأحد أعظم الموانع وأخطر الحجب التي تحول بين الإنسان وبين توفيق الله وهدايته.

إن الجهل ليس مجرد خلوّ الذهن من المعرفة، بل هو علة نفسية وفكرية تجعل صاحبها عاجزاً عن التمييز بين الحق والباطل، والهدى والضلال. وحين يهيمن الجهل على الإنسان، يصبح أرضـًا خصبة لقبول الشبهات، والوقوع في الشهوات، والتقليد الأعمى للمضلين. إن الجاهل يرى الحق غريبـًا والباطل

---

١ - [صفة الصفوة ٢/ ٤٤٠].

مألوفـًا، وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن الجهل والإعراض عن العلم كان السبب الرئيس وراء ضلال الأمم السابقة وهلاكها، كما قال جل وعلا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقال سبحانه عن قوم لوط: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

أثر الجهل في حرمان الهداية

١-انعدام التمييز الفكري: يفتقر الجاهل إلى المعايير الشرعية، فيختلط عليه المعروف بالمنكر، ويرى الضلال رشداً والبدعة سنة.

٢-التبعية وسهولة الانقياد للمضلين: غياب العلم النافع يجعل الإنسان لقمة سائغة لدعاة الباطل وشياطين الإنس والجن لعدم امتلاكه حصانة فكرية.

٣-الاستكبار الناشئ عن الجهل المُرَكّب: أخطر أنواع الجهل هو أن يجهل المرء أنه جاهل، فيظن نفسه على حق ويتحول جهله إلى حاجز يمنعه من طلب الهداية أو قبول النصح.

فإن الجهل داء قاتل يردي صاحبه، وأعظم أنواعه: الجهل المركب فيسير المرء في حياته على جهل وهو لا يعلم أنه جاهل بل يظن نفسه على الحق والهدى، يقول الله تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف:

١٠٣-١٠٥] وهذه الآية والتي كانت في اليهود والنصارى فهي عامة بلفظها، كل من عمل عملا يظنه حسنا

وإلى الله مقربا، وحقيقة عمله أنه سيء وهو فيه لله مسخط والعياذ بالله وهذا من الجهل بدين الله، ومن ذلك قول الله تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} (١)

قال ابن القيم: الجهل قسمان:

١ -بسيط وهو عبارة عن عدم المعرفة مع عدم تلبس بضده.

٢ -ومركب وهو جهل أرباب الاعتقادات الباطلة.

والقسم الأول هو الذي يطلب صاحبه العلم، أما صاحب الجهل المركب فلا يطلبه.

وقال أيضا: الجهل نوعان:

١ -جهل علم ومعرفة.

٢ -وجهل عمل وغي.

وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب، وكما أن العلم يوجب نورا، وأنسا؛ فضده يوجب ظلمة ويوقع وحشة، وقد سمى الله سبحانه وتعالى (العلم) الذي بعث به رسولا نورا، وهدى وحياة. وسمى ضده: ظلمة وموتا وضلالا قال تعالى:

{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} (سورة البقرة، الآية ٢٥٧،) ([1]).

قال ابن القيم على الآية: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} (سورة الأنعام الآية ١٢٢).

قال: أي أومن كان كافرا ميت القلب، مغمورا في ظلمة الجهل، فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيا بعد موته. . . فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، وأتبعه بعد إعراضه عنه. . . ([2])

إن الجهل مصيبة عظيمة، وكارثة كبيرة؛ تجعل الإنسان يتخبط في هذه الحياة، فهو لا يعرف الله، ولا يعرف شرع الله، قلبه مظلم، بل ميت، يسير من دون هدى تتحكم فيه الأهواء والشهوات، ويتحكم فيه الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء.

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} (سورة الشورى الآية ٥٢).

فجعله " روحا " لما يحصل به حياة القلوب والأرواح، و " نورا " لما يحصل به من الهدى والرشاد. . . ([3])

---

[1] –، مدارج السالكين ج ٣ ص ١٦٢.

[2] –إغاثة اللهفان ج ١ ص ٢١ ط تحقيق محمد الفقي.

[3] –مدارج السالكين لابن القيم ج ٣ ص ١٦٢ بتصرف بسيط

ومثل هذا النور في قلب المؤمن: {كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ} (سورة النور الآية ٣٥).

ومثل حال من فقد هذا النور: بمن هو في {كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} (سورة النور الآية ٤٠) ([1]).

وقال ابن القيم: الجهل موت لأصحابه كما قيل:

وفي الجاهل-قبل الموت-موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم فليس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن، فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض قال تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} (سورة يس الآية ٦٩) {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} (سورة يس الآية ٧٠). وقال تعالى {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ} (سورة الروم الآية ٥٢). وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} (سورة فاطر الآية ٢٢).

وشبههم - في موت قلوبهم - بأهل القبور؛ فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبورا لها، فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء.

[1] - مدارج السالكين لابن القيم ج٣ ص ١٦٣.

وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة[1] وملزومهما، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له: كانت ميتة حقيقة، وليس هذا تشبيها لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح. . . والمقصود: أن العلم حياة القلوب من الجهل، فالقلب ميت، وحياته بالعلم والإيمان (١).

السادس عشر: البغي

فإن أعظم نعم الله تعالى على العبد في هذه الحياة هي نعمة الهداية والتوفيق إلى صراطه المستقيم، وهي منحة ربانية تحتاج إلى قلب سليم مستعد لتلقي نور الحق والانقياد له. إلا أن هناك حُجُبًا غليظة وموانع قاطعة تحول بين العبد وبين هذه الهداية، ومن أعظم هذه الموانع خطورة وأشدها أثراً: البغي والظلم.

إن البغي، وهو مجاوزة الحد والتعدي على حقوق الخلق أو الاستكبار عن أمر الخالق، يمثل انتكاسة فطرية تجعل القلب مظلمًا، فلا يرى الحق حقًا ولا الباطل باطلاً. وحين يمارس الإنسان البغي، فإنه يغلق بيده أبواب التوفيق الرباني؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد قضى في محكم كتابه وسنة نبيه بمجازاة الظالمين بمسخ بصائرهم وحرمانهم من نوره، كما قال جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

معنى البغي وأثره على القلب

[1] – مدارج السالكين لابن القيم ج٣ ص٢٦٢، ٢٦١ بتصرف بسيط.

التعريف: البغي في اللغة هو التعدي والظلم ومجاوزة الحد، وفي الاصطلاح هو استطالة العبد على الناس بغير حق، واستسهال ظلمهم، وتجاوز ما أذِنَ الله به.

الأثر الإيماني: يُمثل البغي حجاباً كثيفاً على بصيرة الإنسان؛ لأنه يعكس مرضاً قلبياً يتبعه استكبار عن قبول الحق، وإصرار على الباطل، مما يؤدي تدريجياً إلى قسوة القلب وموته.

اعلم بارك الله فيك أن المرء قد يكون عنده علم من الكتاب والسنة، لكنه يبغي ويظلم، يقول الله تعالى عمن هذه حاله: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣] ويقول الله سبحانه: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: ٩٣]

قال ابن زيد: {فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} (سورة يونس الآية ٩٣) قال: (العلم كتاب الله الذي أنزله وأمره الذي أمرهم به، وهل اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيا بينهم، أهل الأهواء هل اقتتلوا إلا على البغي؟

قال: والبغي وجهان: وجه النفاسة في الدنيا ومن اقتتل عليها من أهلها، وبغي في العلم يرى هذا جاهلا مخطئا ويرى نفسه مصيبا عالما فيبغي بإصابته وعلمه على هذا المخطئ) اهـ ([1]).

فالبغي في العلم وبالعلم كلاهما من الظلم وهما من أسباب الافتتان والاعتداد بالرأي.

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله -: (وأخبر أنهم ما تفرقوا إلا بغيا، والبغي مجاوزة الحد، كما قال ابن عمر: الكبر والحسد، وهذا بخلاف التفرق عن اجتهاد ليس فيه علم ولا قصد به البغي كتنازع العلماء السائغ، والبغي إما تضييع للحق وإما تعد للحد، فهو إما ترك واجب وإما فعل محرم فعلم أن موجب التفرق هو ذلك) ([2]).

السابع عشر: الجدل

إن الهداية نعمة عظيمة من نعم الله تعالى، وهي نور يقذفه الله في قلب العبد فيبصر به الحق ويتبعه. غير أن هذه النعمة قد تُحجب أو تُمنع بأسباب كثيرة، ومن أبرز هذه الأسباب وأخطرها الجدل، وخاصة الجدل المذموم الذي يكون بغير علم، أو بنية فاسدة، أو بقصد الانتصار للنفس لا لطلب الحق.

---

[1] -جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري [سورة يونس، آية رقم ٢٩٣].

[2] -مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ١٤).

فعن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله– ﷺ–: ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ رسول الله – ﷺ–: هذه الآية: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [الزخرف: ٥٨])) . (١).

قال القاري–رحمه الله– : (والمعنى ما كان ضلالتهم ووقوعهم في الكفر إلا بسبب الجدال وهو الخصومة بالباطل مع نبيهم، وطلب المعجزة منه عناداً أو جحوداً، وقيل: مقابلة الحجة بالحجة، وقيل: المراد هنا العناد، والمراء في القرآن ضرب بعضه ببعض لترويج مذاهبهم وآراء مشايخهم من غير أن يكون لهم نصرة على ما هو الحق، وذلك محرم لا المناظرة لغرض صحيح كإظهار الحق فإنه فرض كفاية) (٢). .

وقال المناوي–رحمه الله– : (أي الجدال المؤدي إلى مراء ووقوع في شك أما التنازع في الأحكام فجائز إجماعاً إنما المحذور جدال لا يرجع إلى علم ولا يقضى فيه بضرس قاطع وليس فيه اتباع للبرهان ولا تأول على النصفة بل يخبط خبط عشواء غير فارق بين حق وباطل) (٣). .

وقال البيضاوي–رحمه الله–: (المراد بهذا الجدل العِناد، والمراء والتعصُّب) (٤).

---

١ –رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٥٢) (٢٢٢١٨). قال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه السيوطي في ((الجامع الصغير)) (٧٩٣٤)، وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٦٣٣).

٢ –((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (١/ ٢٦٥).

٣ –((فيض القدير)) للمناوي (٣/ ٣٥٤).

٤ –((قوت المغتذي على جامع الترمذي)) للسيوطي (٢/ ٨٠١)

فالحديث يربط بين الضلال بعد الهداية وبين الوقوع في الجدل، ويبين أن الجدل سبب من أسباب الزيغ والانحراف. وهذا الجدل المذموم هو الذي يقوم على العناد واللجاج، وطلب الغلبة، والتشبث بالرأي ولو خالف الحق، أو المجادلة في دين الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، كما قال تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾.

والجدل بهذا المعنى يقسي القلب، ويورث الضغائن، ويشغل صاحبه عن العمل، ويجعله يدور حول نفسه ورأيه بدل أن يدور حول الحق. ولهذا كان السلف يحذرون منه أشد التحذير، ويقولون إن من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل، وإن المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن.

أخي القارئ: لا شك أن العبد اذا صار لجوجا مماريا قصده الظهور وقهر الخصم فانه يحرم التوفيق إلى الحق والهداية إليه إلا ما شاء الله وذلك لفساد قصده

يقول ابن عقيل الحنبلي رحمه الله "ومن خاض في الشغب تعوده ومن تعوده حرم الإصابة واستروح إليه ومن عرف به سقط سقوط الذرة"[1]

عَن أبي هُرَيْرَة رَضِي الله عَنهُ قَالَ قَالَ رَسُول الله – ﷺ–: من جادل فِي خُصُومَة بِغَيْر علم لم يزل فِي سخط حَتَّى ينْزع

[1] –ابن مفلح أصول الفقه ٣/ ١٤٢٤.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه عن النبي – ﷺ–: قال: ((المراء في القرآن كفر)) (١).

قال المناوي: (المراد الخوض فيه بأنه محدث أو قديم، والمجادلة في الآي المتشابهة المؤدي ذلك إلى الجحود والفتن وإراقة الدماء؛ فسماه باسم ما يخاف عاقبته وهو قريب من قول القاضي: أراد بالمراء التدارؤ وهو أن يروم تكذيب القرآن بالقرآن ليدفع بعضه ببعض فيتطرق إليه قدح وطعن، ومن حق الناظر في القرآن أن يجتهد في التوفيق بين الآيات والجمع بين المختلفات ما أمكنه " (٢)

قال سهل: في القرآن آيتان ما أشدّهما على من يجادل في القرآن، وهما قوله تعالى: {مَا يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [غافر: ٤] أي: يماري في آيات الله ويخاصم بهوى نفسه وطبع جبلّة عقله، قال تعالى: وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ [البقرة: ١٩٧]، أي: لا مراء في الحج.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: (ولن يصيب رجل حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وهو يعلم أنه صادق ويترك الكذب في المزاحة) (٣).

---

١ –رواه أبو داود (٤٦٠٣)، وأحمد (٢/ ٣٠٠) (٧٩٧٦)، وابن حبان (١/ ٢٧٥) (٧٤). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٧/ ١٥٤): رواه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح. وصححه السيوطي في ((الجامع الصغير)) (٩١٨٧)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٦٨٧).

٢ – ((فيض القدير)) (٦/ ٢٦٥).

٣ –((الزهد)) لأحمد بن حنبل (ص٢٦٩).

والثانية: قوله: وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ [البقرة: ١٧٦])

(١).

[1] -((تفسير التستري)) للتستري (١/ ١٩).

الفصل الخامس: أسباب الهداية

فإن الهداية من أجلِّ نعم الله على عباده، وأعظم مننه التي يمنّ بها على من أراد له الخير، فهي التي تُخرج العبد من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان، ومن متاهات الهوى إلى سواء السبيل.

ولما كانت الهداية بهذه المنزلة العظيمة، وكان نيلها مرتبطًا بأسباب قدّرها الله وشرعها لعباده، رأينا أن نفرد هذا الفصل لبيان أسبابها الموصلة إليها المرغبة فيها

السبب الأول: القرآن الكريم

اعلم-زادني الله وإياك علما-بعد أن استعرضنا في المقامات السابقة الحجب الغليظة والموانع المهلكة التي تحول بين العبد وبين نور التوفيق، نأتي الآن إلى فتح أبواب الأمل والرحمة، لنتلمس أعظم المفاتيح الربانية وأول أسباب الهداية على الإطلاق: القرآن الكريم.إن القرآن الكريم ليس مجرد كتاب يُتلى للتبرك، بل هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والروح التي تحيا بها القلوب الميتة. إنه الدليل المرشد في صحراء الحيرة، والشفاء الحاسم لأسقام الصدور من الشبهات والشهوات. وحين يُقبل العبد على كتاب الله بقلب حاضر، ونية صادقة، وتدبر واعٍ، تنقشع عن قلبه كل الموانع السابقة؛ فيتبدد جهله بالعلم، وينكسر كبره بالخضوع لآيات الله، وتزول رياسته الزائفة أمام عظمة ملكوت السموات والأرض.

لقد أعلن الحق سبحانه وتعالى عن هذه الوظيفة الأسمى لكتابه في مواضع لا تحصى، فقال جل وعلا: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء:٩].

وقال سبحانه: ويقول {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)} [البقرة:٢].

محاور رئيسية تكشف أثر القرآن كأول أسباب الهداية

١-تفكيك الشبهات والشهوات: يحتوي القرآن على البراهين القاطعة والمواعظ المؤثرة التي تقتلع أمراض القلوب (كالكبر، والحسد، والتعصب) من جذورها.

٢-إعادة بناء التصورات (المعرفة الصحيحة): يقدم القرآن للمسلم تصوراً كاملاً وصحيحًا عن حقيقة الخالق، والكون، والنفس، والدار الآخرة، فيقضي على مانع الجهل وضلال الفكر.

٣-تزكية النفوس وتأهيلها: تلاوة القرآن وتدبره يُصلحان المحل (القلب)، مما يجعل العبد أهلاً لتلقي فيوضات الهداية والتوفيق الرباني.

فالله أخبرنا في غير آية من كتابه بأنه أنزله هداية للخلق فقال سبحانه: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء:٩].

ويقول {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)} [البقرة:٢]

يقول الطبري – رحمه الله -فإن قال لنا قائل: أوَ ما كتابُ الله نورًا إلا للمتّقين، ولا رَشادًا إلا للمؤمنين؟

قيل: ذلك كما وصفه رّبنا عزّ وجل. ولو كان نورًا لغير المتقين، ورشادًا لغير المؤمنين، لم يخصُصِ الله عز وجل المتقين بأنه لهم هدًى، بل كان يعُمّ به جميع المنذَرين.

ولكنه هدًى للمتقين، وشفاءٌ لما في صدور المؤمنين، وَوَقْرٌ في آذان المكذبين، وعمىً لأبصار الجاحدين، وحجةٌ لله بالغةٌ على الكافرين. فالمؤمن به مُهتدٍ، والكافر به محجوج (١)

يقول الشنقيطي – رحمه الله – {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: {إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} الآية: ذكر –جلَّ وعلا– في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية ، وأجمعها لجميع العلوم ، وآخرها عهداً برب العالمين جلَّ وعلا – يهدي للتي هي أقوم . أي الطريق التي هي أسد وأعد وتصوب.

وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، لو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم. لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة.

---

١ – تفسير الطبري – (ج ١ / ص ٢٣٠)

ولكنَّنا إن شاء الله تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة مِن هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بيانـًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهـًا ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفَّار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة.

فمن ذلك توحيد الله -جلَّ وعلا-: فقد هدى القرآن فيه للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيده جلَّ وعلا في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته.

وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول - توحيده في ربوبيته ، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء ، قال تعال : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله } [الزخرف : ٨٧] الآية ، وقال : { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَمَن يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } [يونس : ٣١] وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله : { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين } [الشعراء : ٢٣] تجاهل من عارف أنه عبد مربوب . بدليل قوله تعالى : { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هؤلاء إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ } [الإسراء : ١٠٢] الآية ، وقوله : { وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل : ١٤] وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله .

كما قال تعالى: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } [يوسف : ١٠٦] ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً .

الثاني -توحيده جلَّ وعلا في عبادته: وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى « لا إله إلا الله » وهي متركبة من نفي وإثبات. فمعنى النفي منها : خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت . ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على أسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم { أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص : ٥] .

ومن الآيات الدالة على هذا الأنواع من التوحيد قوله تعالى : { فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله واستغفر لِذَنبِكَ } [محمد: ١٩] ، وقوله : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون } [الأنبياء : ٢٥] ، وقوله : { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ } [الزخرف : ٤٥] ، وقوله : { قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ } [الأنبياء : ١٠٨] فقد أمَر في هذه الآية الكريمة أن يقول : إنما أوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد . لشمول كلمة « لا إله إلا الله » لجميع ما جاء في الكُتب. لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده.

فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتْبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث -توحيده جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته: وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول - تنزيه الله جلَّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم. كما قال تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : ١١]

والثاني -الإيمان بما وصف الله به نفسه . أو وصفه به رسوله - ﷺ- على الوجه اللائق بكماله وجلاله . كما قال بعد قوله: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير } [الشورى : ١١] مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف ، قال تعالى : { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمـًا } [طه : ١١٠]

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جلَّ وعلا - على وجوب توحيده في عبادته،ولله يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير.

فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

ووبَّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده.

لن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار } [يونس : ٣١]إلى قوله { فَسَيَقُولُونَ الله } [يونس : ٣١]. فلمَّا أقروا بربوبيته وبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره بقوله : { فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } [يونس : ٣١].

ومنها قوله تعالى : { قُل لِّمَنِ الأرض وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ } [المؤمنون : ٨٤-٨٥] فلمَّا اعترفوا وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله : { قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } [المؤمنون : ٨٥]، ثم قال : { قُلْ مَن رَّبُّ السماوات السبع وَرَبُّ العرش العظيم سَيَقُولُونَ لِلَّه } [المؤمنون : ٨٦-٨٧] فلما أقرُّوا وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله : { قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } [المؤمنون : ٨٧]، ثم قال : { قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجْيِرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ }... (١)

فالقران الكريم كتاب هداية ودلالة على وحدانية الله وعلى كمال نعوته و هو يهدي العبد إلى ما فيه صلاح دينه و دنياه و آخرته فهو يأخذ بأيدي الحيارى و يرشد الضالين و ينبه الغافلين و يثبت السالكين على الصراط المستقيم ولا يتوصل العبد إلى ذلك إلا بما يلي:

١ – أضواء البيان – (ج ٣ / ص ١١١-١١٣)

أولاً: تلاوة كتاب الله عز وجل وتدبره، والعمل به، ومن لم يتله فليعمل به، فإن أعظم تلاوة له العمل به قال تعالى: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [الإسراء:٩] .

فمن لم يهتد بالقرآن فلا هداه الله، ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله، فإنه النور والنجاة.

السبب الثاني: الاعتصام بالسنة: سنة المصطفى - ﷺ-

فإذا كان القرآن الكريم هو أصل الهداية وينبوعها، فإن الاعتصام بالسنة النبوية المطهرة هو التطبيق العملي والبيان الشافي والسبيل الحتمي لتحقيق تلك الهداية.

فلا يمكن لعبدٍ أن يذوق طعم الرشاد، أو ينجو من موانع الضلال والجهل والتعصب، إلا إذا جعل من هدي النبي ﷺ وسيرته منارةً يقتدي بها في جليل أمره وحقيره.

إن الاعتصام بالسنة ليس نافلةً أو أمراً ثانويـاً، بل هو صمام الأمان الفكري والروحي للعبد.

وحين تعصف بالبشرية أمواج الشبهات، وتتفرق بها سبل الأهواء والتحزب، يبرز التمسك بسنة المصطفى ﷺ كعاصمٍ وحيد من التيه، لأن السنّة تفصل

مجمل القرآن، وتوضح أحكامه، وتزكي النفوس على مكارم الأخلاق، فتنقي القلوب من الكبر والحسد وحب الرياسة.

وحين قرن الله سبحانه وتعالى طاعة الرسول بالهداية المطلقة في كتابه فقال:

{وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: ٥٤]

اعلم -بارك الله فيك-أن والاهتداء بهديه، والاستنارة بنوره - ﷺ- ، قال تعالى:

{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً } [الأحزاب:٢١].

قال الإمام الزهري-رحمه الله-: «كان علماؤنا يقولون: الاعتصام بالسنة هو النجاة» (١) .

وقال الإمام مالك-رحمه الله -: «السنة سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق» (٢) .

وهذا التشبيه المالكي في الغاية من المطابقة والجودة، ولا غرو؛ فالطيب من معدنه لا يُستغرب، فهو إمام دار الهجرة، معدود من نوادر معادن الحكمة، وذخائر العلم، وحصون الديانة. وتظهر براعة التشبيه لمن تدبر حال الناس في أزمنة الجهل وغربة الدين واستطالة الفسقة، فسفينة السنة علمًا وعملًا ونيَّة

---

١ -سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٣٧).

٢ -الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٠٩)، وأبو إسماعيل الأنصاري الهروي في «ذم الكلام» (٨٨٥).

واتِّباعًا ودعوة وجهادًا هي سفينة النجاة والفلاح لمن وفقه الله لركوبها والاعتصام بها.

قال تقي الدين: «وذلك أن السنة والشريعة والمنهاج: هو الصراط المستقيم الذي يوصل العباد إلى الله. والرسول: هو الدليل الهادي الخِرِّيتُ في هذا الصراط، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]،

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال عبدالله بن مسعود خط رسول الله - ﷺ- خطًّا وخطَّ خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذا سبيل الله، وهذه سُبُل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]» (١) .

---

١ -أحمد (٤١٤٢، ٤٤٣٧) الدارمي (٢٠٢) والسنة لمحمد بن نصر المروزي ٩/١، ومسند أبي داود الطيالسي ١٩٧/١، والسنن الكبرى للنسائي ٩٥/١٠ (١١١١٠)، وصححه الحاكم (٨١٣/٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن ابن مسعود، فذكره، وأقره الذهبي، ومسند الدارمي ٢٨٥/١ وحسنه حسن أسد، وابن حبان (١ / ١٨١)، وقال الألباني في ظلال الجنة (١٦و١٧): حسن صحيح.

وإذا تأمل العاقل -الذي يرجو لقاء الله-هذا المثال، وتأمل سائر الطوائف من الخوارج ثم المعتزلة ثم الجهمية والرافضة ومَن أقرب منهم إلى السنة من أهل الكلام مثل الكرامية والكلابية والأشعرية وغيرهم، وأن كلًّا منهم له سبيل يخرج به عما عليه الصحابة وأهل الحديث، ويدَّعي أن سبيله هو الصواب ـ وَجَدَ أنهم المراد بهذا المثال الذي ضربه المعصوم الذي لا يتكلم عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]» (١) .

تمسَّك بحبل الله واتبعِ الهُدى ولا تكُ بدعيًّا لعلك تُفلِحُ

ودِن بكتابِ الله والسننِ التي أتت عن رسول الله تنجُو وتربحُ

عن زيد بن أرقم -رضي الله عنه - أنَّ النبي - ﷺ- قال: ((إني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله؛ فيه الهدى والنور، فخُذوا بكتاب الله وتمسَّكوا به)).(٢)

وكان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يقول: سَنَّ رسول الله - ﷺ- وولاة الأمر بعده - يعني: خلفاءَه وأصحابه - سننًا؛ الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكثار من طاعة الله، وقوة على دين الله، من اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومَن استنصر بها

---

١ -مجموع الفتاوى (٤/ ٥٧) وهو في «الانتصار لأهل الأثر» المطبوع باسم «نقض المنطق» ٨٣/١.

٢ - رواه الإمام مسلم في كتاب فضائل الصحابة من سننه، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه وذكره برواياته (١٥/ ١٧٩ ـ ١٨١ مع النووي)، ورواه الإمام الدارمي في كتاب فضائل القرآن من سننه، باب فضل من قرأ القرآن (١/ ٥٢٤)، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

فهو منصور، ومَن خالفها اتَّبَع غير سبيل المؤمنين، والله تعالى يقول: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

عنْ أبي نجيح العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله -ﷺ- ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فما تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًّا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة(١)

وفي هذا بيانٌ منه -ﷺ- أن اتِّباع الكتاب والتمسُّكَ به، عصمةٌ من الضلال، ونَجاة من الفتن، ونورٌ في الظلمات، وفرقان بين الحق والباطل عند اشتباه الأمور.

---

١ - المسند ٤/ ١٢٦. ومن طريقه أخرجه أبو داود ٤/ ٢٠٠ (٤٦٠٧). ومن طريق الوليد صحّحه ابن حبان ١/ ١٧٨ (٥).

*****

ثالثا: الاعتصام بالله

فبعد أن تفصلنا في الحديث عن الوحيين الشريفين—الكتاب والسنة— باعتبارهما المصدرين التشريعيين للهداية، نأتي الآن إلى الركيزة الإيمانية والأصل التعبدي الذي يربط قلب العبد بربه مباشرة، وهو: الاعتصام بالله سبحانه وتعالى.

إن الاعتصام بالله هو غاية التوحيد وثمرة اليقين، ومضمونه أن يبرأ العبد من حوله وقوته، ويلجأ بكل جوارحه وقلبه إلى كنف الخالق سبحانه، مستجيراً به من ضلال نفسه، وموانع جهله، وشبهات دنياه.

وحين يعتصم العبد بالله، فإنه يعلن افتقاره التام إلى الهداية الربانية، فيتحول هذا الانكسار والتضرع إلى سببٍ مباشر لتدفق ألطاف الله وتوفيقه على قلبه.

إن الاعتصام بالله هو الذي يحمي المؤمن من التموج مع الأهواء، ومن السقوط في شباك الكبر، والحسد، وحب الرياسة، والتعصب؛ لأن من احتمى بحمى القوي العزيز، صغرت في عينه الدنيا ومطامعها، واستنار قلبه بنور المعرفة الحقة.

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى بين الاعتصام به وبين نيل الهداية الحتمية برابط الشرط والجزاء في آية محكمة قاطعة فقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

محاور رئيسية تكشف أثر الاعتصام بالله كسبيل للهداية

١-تحقيق العبودية والافتقار: الاعتصام بالله يكسر كبرياء النفس ويقضي على الغرور، مما يجعل القلب محلاً طيباً وقابلاً لتلقي نور الهداية (تحقيق الأهلية).

٢-الحصانة من شياطين الإنس والجن: اللجوء إلى الله يمنح العبد مناعة روحية وفكرية تحميه من شبهات الجهل، ومكائد المضلين، وفتنة التعصب الأعمى.

٣-ثبات القلوب في الفتن: الاعتصام بالله يمد العبد بالقوة واليقين، فلا تزيغ بصبرته المغريات الدنيوية ولا تثنيه شهوة الرياسة أو إيثار العاجلة عن طريق الحق.

تعريف الاعتصام: هو ملازمة سبب النجاة من الهَلَكَةِ ونوال الرغيبة؛ ففيه لِياذٌ واستجارة واستعاذة، واستعانة وتوكل وتعلُّق، وكماله تحقيق التوحيد، والعاصم هو المانع؛ وفي التنزيل: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ [هود: ٤٣]؛ أي: لا مانع لأحد من الغرق إلا من رحِمَ تعالى.

والله يعصِم عبده، بمعنى يمنعه مما يضره، ويمنع عنه ما يضره، واعتصم فلان بالله: إذا امتنع به، ومنه: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢].

يقول إبراهيم الدويش: " إذا عرفت الهدف وبان لك الطريق ورضيت بهما فإياك أن تعتمد على نفسك الضعيفة وعلى حولك وقوتك، فأنت أخي مهما بلغت ضعيف والله تعالى يقول {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] نعم لا حول ولا قوة لك إلا بالله، فعليك في زمن الفتن والشبهات والشهوات بالاعتصام بالله، أليس المتغيرات تتلاحق؟ أليس الشبهات والشهوات تموج كموج البحر فلا عاصم لك إلا بالله.

تأمل: أخي لماذا نشكو للناس؟ لماذا تئن بضعف نفسك؟

اشك الأمر لله، كن مع الله، إذا سجدت فأعلن ضعفك وافتقارك لله " {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١]

ألست تريد الهداية إلى الصراط المستقيم؟

إذن اعتصم بالله تعالى، أعلن دائما في كل لحظة الضعف والافتقار أكثر من الدعاء والانكسار في مثل هذا الزمن، فلا عاصم لك من الفتن إلا الله، لا معين ولا منجي لك في زمن الشهوات إلا الله، لك في رسول الله – ﷺ – أسوة فقد

كان – ﷺ– يكثر في سجوده من قوله "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دينك".[1]

بل كان – ﷺ– يقول " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ "[2]

فأين نحن إذن من تكرار مثل هذا الأدعية خاصة في مثل هذا الزمن؟ أليس الله يقول في الحديث القدسي " يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ،"[3]

اطلبوا الهداية .... افعلوا أسبابها .... تجنبوا مواطن الشبهات ... ألحوا على الله تعالى بالهداية، إذا سألت أخي فاسأل الله، إذا استعنت فاستعن بالله، و ردد دائما {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} [البقرة: ٢٥٠] كرر في كل وقت { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨]

يقولُ ابنُ القيِّم: ((أجمع العارفون بالله على أنَّ الخِذْلان: أنْ يكلك اللهُ على نفسِك، ويُخلِّي بينك وبينها. والتوفيقُ أنْ لا يكِلك اللهُ إلى نفسِك.

---

[1] – أخرجه أحمد (٦/٢٩٤) انظر صحيح الجامع: ٤٨٠١، الصحيحة: ٢٠٩١

[2] – أخرجه ابن أبى شيبة (٦/٤٦، رقم ٢٩٣٥٨) ، وأحمد (٤/١٢٣ ، رقم ١٧١٥٥) ، وابن حبان (٥/٣١٠ ، رقم ١٩٧٤) ، انظر الصحيحة: ٣٢٢٨، صحيح موارد الظمآن: ٢٠٤٧

[3] – أخرجه مسلم (٤/١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧) ، وابن حبان (٢/٣٨٥ ، رقم ٦١٩) ، والحاكم (٤/٢٦٩ ، رقم ٧٦٠٦)

فالعبيدُ متقلِّبون بين توفيقهِ وخذلانِهِ، بلِ العبدُ في الساعةِ الواحدةِ ينالُ نصيبه منْ هذا وهذا، فيطيعهِ ويُرضيهِ، ويذكرُه ويشكرُه بتوفيقِه له، ثم يعصيهِ ويخالفُه، ويُسْخِطُه ويغفلُ عنه بخذلانِهِ له، فهو دائرٌ بين توفيقِه وخِذْلانِهِ.

فمتى شهِد العبدُ هذا المشهد وأعطاهُ حقَّه، علِم شِدَّة ضرورتِه وحاجتِه إلى التوفيق في كلِّ نَفَسٍ وكلِّ لحظةٍ وطرْفةِ عيْنٍ، وأنَّ إيمانه وتوحيده بيدِهِ تعالى، لو تخلَّى عنه طرفة عينٍ لَثُلَّ عَرْشُ توحيدِه، ولخَرَّتْ سماءُ إيمانِهِ على الأرضِ، وأنَّ الممسك له: هو منْ يمسك السماء أنْ تقع على الأرضِ إلا بإذنِهِ))[1]

هيا أعلن افتقارك إلى الله واهتف:

فقيرا جئت بابك يا إلهي ولست إلى عبادك بالفقير

غني عنهم بيقين قلبي وأطمع منك في الفضل الكبير

إلهي ما سألت سواك عونا فحسبي العون من رب قدير

إلهي ما سألت سواك عفوا فحسبي العفو من رب غفور

إلهي ما سألت سواك هديا فحسبي الهدي من رب بصير

إذا لم أستعن بك يا إلهي فمن عوني سواك ومن مجيري؟

[1] –كتاب لا تحزن (ص:١٦٣)

فالطلب العون من صاحب العون واسمع إلى كلام ابن القيم – رحمه الله–إذ يقول: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [إبراهيم: ٢٧]

كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم ومن حرمه فقد حرم وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء: ٧٤]

فكان أثبت الناس قلبا وأثبتهم قولا، والقول الثابت هو القول الحق والصدق وهو ضد القول الباطل الكذب فالقول نوعان ثابت له حقيقة وباطل لا حقيقة له وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة"[1]

فما مُنح عبد أعظم من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج من يكون إليه في قبورهم ويوم معادهم.

قال أبو جعفر الرازي عن ابن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها فقالت: تعس من كفر بالله، فقالت لها ابنة فرعون: ولك رب غير أبي؟ قالت: ربي ورب أبيك ورب كل شئ الله، فلطمتها بنت فرعون

[1] – إعلام الموقعين (١/ ٧٦)

وضربتها، وأخبرت أباها فأرسل إليها فرعون، فقال: تعبدين ربًا غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك ورب كل شئ الله، وإياه أعبد، فعذبها فرعون وأوتد لها أوتادًا، فشد رجليها ويديها، وأرسل عليها الحيات، وكانت كذلك فأتى عليها يومًا فقال لها: ما أنت منتهية؟ فقالت له: ربي وربك ورب كل شيء الله فقال لها: إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلي، فقالت له: اقض ما أنت قاض، فذبح ابنها في فيها وإن روح ابنها بشّرها فقال لها: أبشري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا فصبرت، ثم إن فرعون أتاها يومًا آخر فقال لها مثل ذلك، فقالت له مثل ذلك فذبح ابنها الآخر في فيها فبشرها روحه أيضًا: اصبري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا قال: وسمعت امرأة فرعون كلامَ روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنت امرأة فرعون وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها لامرأة فرعون، حتي رأت فازدادت إيمانًا ويقينًا وتصديقًا فأطلع الله فرعون على إيمانها، فقال للملأ: ما تعلمون في آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها فقال لهم: إنها تعبد غيري فقالوا له: اقتلها فأوتد لها أوتادًا فشد يديها ورجليها، فدعت آسية ربها فقالت: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)}، فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة فقال فرعون: ألا

تعجبون من جنونها نعذبها وهي تضحك فقبض الله روحها -رضي الله عنها- ([1]).

رابعا: كثرة الدعاء والابتهال للحي القيوم

أخي القارئ: إن الهداية محض منةٍ ربانية، وعطاء إلهي لا يملكه بشر لنفسه ولا لغيره، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

ومن هذا المنطلق الإيماني، يبرز كثرة الدعاء والابتهال إلى الله تعالى كواحد من أعظم وأقوى أسباب نيل الهداية والثبات عليها.

[1] - تفسير ابن كثير ٨/ ٣٥٧٣.

فالعبد حين يرفع يديه بالدعاء، يعلن اضطراره التام وعجزه الكامل عن الاستغناء عن هداية ربه ولو طرفة عين.

إن كثرة الدعاء واللجوء إلى الله بالابتهال تذيب قسوة القلوب، وتكسر حجب الكبر والتعصب وحب الرياسة، وتطهر النفس من دنس الذنوب التي تحول دون الهدى. ولأهمية هذا السبب وعظم أثره، فرض الله على عباده المسلمين أن يدعوه بالهداية في كل صلاة سبع عشرة مرة على الأقل لقراءة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

محاور رئيسية تكشف أثر كثرة الدعاء في نيل الهداية تحقيق حقيقة الاستهداء والتبرؤ من الحول

١-إدراك العبد أن الهداية بيد الله وحده، فيطلبها بالابتهال والإلحاح الصادق.

٢-الانكسار بين يدي الحي القيوم: الدعاء المتواصل يربي النفس على التواضع، وهو العلاج الحاسم لمانع الكبر، والجهل، والجمود الفكري.

٣-صمام أمان للثبات على الحق: ليس الشأن أن تهتدي يومـًا، بل الشأن أن تثبت؛ والدعاء والابتهال هما الوسيلة الأعظم لتثبيت القلوب عند ورود الشبهات والشهوات.

اعلم- زادك الله علما وفهما - أن إذا أردت أن يثبتك الله ويهديك، فعليك بكثرة الدعاء والتوجه إلى رب الأرض والسماء أن يثبت العبد على الطريق

المستقيم وأن يهديه إلى ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨]

عبد الله عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله - ﷺ- يقول: إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرّحمن كقلبٍ واحد، يصرّف كيف يشاء. ثم يقول رسول الله - ﷺ-: اللهمّ مصرِّف القلوب صرِّف قُلوبَنا إلى طاعتك. (١)

يقول العلامة ابن عاشور – رحمه الله – دعاء عُلِّمَه النبي - ﷺ- تعليماً للأمة :

لأنّ الموقع المحكي موقع عبرة ومثار لهواجس الخوف من سوء المصير إلى حال الذين في قلوبهم زيغ فما هم إلاّ من عقلاء البشر ، لا تفاوت بينهم وبين الرّاسخين في الإنسانية ، ولا في سلامة العقول والمشاعر ، فما كان ضلالهم إلاّ عن حرمانهم التوفيق ، واللطف ، ووسائلَ الاهتداء .

وقد عُلم من تعقيب قوله : {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} [آل عمران: ٧] الآيات بقوله : { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا } أنّ من جملة ما قُصد بوصف الكتاب بأنّ منه محكماً ومنه متشابهاً ، إيقاظَ الأمة إلى ذلك لتكون على بصيرة في تدبّر كتابها : تحذيراً لها من الوقوع في الضلال ، الذي أوقع الأممَ في كثير منه وجودُ المتشابهات في كتبها ، وتحذيراً للمسلمين من إتباع البوارق الباطلة مثل ما وقع فيه بعض العرب من الردّة والعصيان ، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لتوهّم أنّ التديّن بالدين إنّما كان لأجل وجود الرسول بينهم ، ولذلك كان أبو

---

١ – رواه أحمد في المسند: ٦٥٦٩ورواه مسلم ٢ : ٣٠١

بكر يدعو بهذه الآية في صلاته مدة ارتداد من ارتد من العرب ، ففي «الموطأ» ، عن الصُّنَابِحي : أنّه قال : «قدمتُ المدينة في خلافة أبي بكر الصديق فصليت وراءه المغرب فقام في الثالثة فدنوت منه حتى إنّ ثيابي لتكاد تمسّ ثيابه فسمعته يقرأ بأمّ القرآن وهذه الآية : { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا } الآية .

فَزَيْغ القلب يتسبّب عن عوارض تعرض للعقل : من خلل في ذاته ، أو دواعٍ من الخُلطة أو الشهوة ، أو ضعف الإرادة ، تحول بالنفس عن الفضائل المتحلّية بها إلى رذائل كانت تهجس بالنفس فتذودها النفس عنها بما استقرّ في النفس من تعاليم الخير المسمّاة بالهُدى ، ولا يدري المؤمن ، ولا العاقلُ ، ولا الحكيم ، ولا المهذّبُ : أيَّةَ ساعة تحلّ فيها به أسباب الشقاء ، وكذلك لا يدري الشقي ، ولا المنهمك ، الأفن : أيَّةَ ساعة تحفّ فيها به أسباب الإقلاع عمّا هو متلبّس به من تغيّر خَلْق ، أو خُلُق ، أو تبدل خَليط ، قال تعالى : {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} [الأنعام: ١١٠] ولذا كان دأب القرآن قرنَ الثناء بالتحذير ، والبشارة بالإنذار .

وقوله: { بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } تحقيق للدعوة على سبيل التلطّف؛ إذ أسندوا الهَدْي إلى الله تعالى، فكان ذلك كرمًا منه، ولا يرجع الكريم في عطيته، وقد استعاذَ النبي صلى الله عليه وسلم من السلب بعد العطاء.

وإذْ اسم للزمن الماضي متصرّف، وهي هنا متصرّفة تصرّفًا قليلاً؛ لأنّها لمّا أضيف إليها الظرف ، كانت في معنى الظروف ، ولما كانت غير منصوبة كانت فيها شائبةُ تصرّففٍ ، كما هي في يومئذٍ وحينئذٍ ، أي بعد زمن هدايتِك إيانا .

وقوله : { وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً } طلبوا أثَرَ الدوام على الهُدى وهو الرحمة ، في الدنيا والآخرة ، ومنع دواعي الزيغ والشر ..

وجعلت الرحمة من عند الله لأنّ تيسير أسبابها ، وتكوين مهيّئاتها ، بتقدير الله؛ إذ لو شاء لكان الإنسان معَرّضًا لنزول المصائب والشرور في كلّ لمحة؛ فإنّه محفوف بموجودات كثيرة ، حيّة وغير حيّة ، هو تلقاءَها في غاية الضعف ، لولا لطف الله به بإيقاظ عقله لاتّقاء الحوادث ، وبإرشاده لاجتناب أفعال الشرور المهلكة ، وبإلهامه إلى ما فيه نفعه ، وبجعل تلك القوى الغالبةِ له قوى عمياءَ لا تهتدي سبيلاً إلى قصده ، ولا تصادفه إلاّ على سبيل الندور ولهذا قال تعالى : { اللَّه لطيف بعباده } [الشورى : ١٩] ومن أجلَى مظاهر اللطف أحوال الاضطرار والالتجاء وقد كنت قلت كلمة «اللّطْفُ عند الاضطرار» .

والقصر في قوله: {إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨] للمبالغة ، لأجل كمال الصفة فيه تعالى؛ لأنّ هبات الناس بالنسبة لما أفاض الله من الخيرات شيء لا يعبأ به . وفي هذه الجملة تأكيد بأنّ، وبالجملة الاسمية، وبطريق القصر . (١)

---

١ – التحرير والتنوير – (ج ٣ / ص ٤٢)

و لقد أمرنا الله تعالى أن نطلب منه الهداية و التوفيق فقد جاء في الحديث القدسي عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ– فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ (١)

يقول النووي – رحمه الله – قَوْله تَعَالَى: { كُلّكُمْ ضَالّ إِلَّا مَنْ هَدَيْته }

---

١ – أخرجه مسلم ح ٤٦٧٤

قَالَ الْمَازِرِيُّ : ظَاهِر هَذَا أَنَّهُمْ خُلِقُوا عَلَى الضَّلَال إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللَّه تَعَالَى . وَفِي الْحَدِيث الْمَشْهُور " كُلّ مَوْلُود يُولَد عَلَى الْفِطْرَة " قَالَ : فَقَدْ يَكُون الْمُرَاد بِالْأَوَّلِ وَصْفهمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْل مَبْعَث النَّبِيّ – ﷺ– ، وَأَنَّهُمْ لَوْ تُرِكُوا وَمَا فِي طِبَاعهمْ مِنْ إِيثَار الشَّهَوَات وَالرَّاحَة وَإِهْمَال النَّظَر لَضَلُّوا . وَهَذَا الثَّانِي أَظْهَر . وَفِي هَذَا دَلِيل لِمَذْهَبِ أَصْحَابنَا وَسَائِر أَهْل السُّنَّة أَنَّ الْمُهْتَدِي هُوَ مَنْ هَدَاهُ اللَّه ، وَبِهُدَى اللَّه اِهْتَدَى ، وَبِإِرَادَةِ اللَّه تَعَالَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى إِنَّمَا أَرَادَ هِدَايَة بَعْض عِبَاده وَهُمْ الْمُهْتَدُونَ ، وَلَمْ يُرِدْ هِدَايَة الْآخَرِينَ ، وَلَوْ أَرَادَهَا لَاهْتَدَوْا ، خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلهمْ الْفَاسِد : أَنَّهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى أَرَادَ هِدَايَة الْجَمِيع . جَلَّ اللَّه أَنْ يُرِيد مَا لَا يَقَع، أَوْ يَقَع مَا لَا يُرِيد .)[1]

و لقد كان النبي – ﷺ– يدعو الله تعال بالهداية و التوفيق عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– قُلْ اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ)[2]

عَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ قَالَ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ قَالَ ابْنُ جَوَّاسٍ فِي قُنُوتِ الْوِتْرِ اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ وَقِنِي

[1] – شرح النووي على مسلم – (ج ٨ / ص ٣٨٤).

[2] –– أخرجه مسلم (٤٩٠٤).

شَرَّ مَا قَضَيْتَ إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَا (١)

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ- كَانَ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ يُكَبِّرُ ثُمَّ يَقُولُ وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ اصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ وَإِذَا رَكَعَ قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعِظَامِي وَعَصَبِي وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَالَ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ وَإِذَا سَجَدَ قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُوَرَهُ فَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

---

١ – أخرجه أحمد (١٦٢٥) أبو داود (١٢١٤) والترمذي (٤٢٦).

وَإِذَا فَرَغَ مِنْ الصَّلَاةِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ (١)

ومن الدعاء بطلب الهداية ما صح عنه – ﷺ–:

عن عبد الله عن النبي – ﷺ– أنه كان يقول اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)(٢)

يقول المناوي – رحمه الله – اللهم إني أسألك الهدى) أي الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم والتقى الخوف من الله والحذر من مخالفته والعفاف الصيانة عن مطامع الدنيا والغنى غنى النفس والاستغناء عن الناس .

قال الطيبي: أطلق الهدى والتقى ليتناول كل ما ينبغي أن يهدى إليه من أمر المعاش والمعاد ومكارم الأخلاق وكلما يجب أن يتقى منه من شرك ومعصية وخلق ديني)(٣)

الحكمة من طلب الرسول – ﷺ– الهداية:

---

١ أخرجه أحمد (٧٦٤) و مسلم (٧٧١).

٢ – أخرجه مسلم (ح: ٢٧٢١).

٣ – فيض القدير [جزء ٢ – صفحة ١٣٧].

لماذا يطلب الرسول- ﷺ- الهداية ؟

والهداية يطلبها عليه الصلاة والسلام وهذا فيه إشكال عند أهل العلم، قال بعضهم: لماذا يقول - ﷺ-: اللهم اهدني، وقد هداه الله بل هدى به:

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا كفى بالمطايا طيب ذكراك حاديا

بل هو مهدي - ﷺ- وهو الذي هدى الله به القلوب، ولذلك يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الشورى:٥٢] .

فلماذا يقول: اللهم اهدني؟

أما اهتديت أما وصلت المنزلة العلية؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وإنما يطلب عليه الصلاة والسلام الهداية؛ لأن الهداية منازل ودرجات وأعلاها وآخرها: منزلة الوسيلة، التي يطمع - ﷺ- أن يبلغها وسوف يبلغها بإذن الله، ولذلك نقول نحن بعد الأذان: { اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد }[1].

فآخر ما يصل إليه هو هذه الدرجة، فهو يتمناها في كل لحظة.

وجواب ثان: أن العبد يزداد هداية كل يوم، فالرسول عليه الصلاة والسلام يطلب من الله أن يزيده هداية، فالهداية تتجزأ وهي درجات.

[1] - أخرجه أحمد (١٤٨٥٩)، والبخاري (٦١٤).

وجواب ثالث: أن طرق الهداية كثيرة كعدد الأنفاس، وإذا لم يهدك الله عز وجل في كل لحظة وحركة وسكنة؛ لا تهتدي، فيطلب عليه الصلاة والسلام من ربه أن يهديه وأن يزيده هداية

****

خامسا: المجاهدة بصدق

أخي القاري الكريم: اعلم أن مجاهدة النفس من أعظم أبواب الهداية وأوثق أسبابها، إذ النفس بطبعها تميل إلى الهوى والشهوات، وتميل عن الحق إن لم تُلجم بلجام التقوى، ولم تُجاهد في سبيل الاستقامة. فمن ترك نفسه على سجيتها أوردته المهالك، ومن جاهدها في الله هداه الله إلى سبيله، كما قال سبحانه: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩]

فالجهاد هنا ليس مقصوراً على قتال العدو الظاهر، بل يشمل مجاهدة النفس الأمّارة بالسوء، وكبح جماحها، وترويضها على الطاعة، ومنعها من المعصية. وهذا الجهاد هو الجهاد الأكبر كما جاء في الأثر، وهو الذي يفتح للعبد أبواب الهداية والتوفيق، ويزيده ثباتاً على الحق.

ومجاهدة النفس ليست أمراً يسيراً، بل هي صبرٌ ومصابرة، ومراغمةٌ للهوى، ومخالفةٌ للشهوات، مع الاستعانة بالله والإلحاح في الدعاء. فمن صدق في مجاهدتها، رزقه الله نوراً يمشي به في الناس، وهدىً يثبت به على الصراط المستقيم.

والمراد بمجاهدة النفس؛ "فطمها وحملها على خلاف هواها المذموم وإلزامها تطبيق شرع الله -تعالى- أمراً ونهياً"

"الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد على ثلاثة أنواع: مجاهدة العدو الظاهر مجاهدة الشيطان مجاهدة النفس وتدخل هذه الثلاثة في قوله تعالى: {وجاهدوا في الله حقَّ جِهادِهِ} (الحج: ٧٨)

وقوله: {وجاهدوا بأموالِكُم وأنفُسِكم في سبيل الله} [التوبة: ٤١]

وقد ورد في الأثر: "جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم". (١) .

ولا غنى للعبد عن مجاهدة نفسه التي بين جنبيه حتى تقيم ما أمرها الله ورسوله به وتحذر ما نهاها عنه؛ فالنفس مجبولة على حب الهوى؛ كما قال الجوزي – رحمه الله–: "النفس جبلت على حب الهوى فلذلك احتاجت إلى المجاهدة والمخالفة".

المجاهدة على فعل الواجبات والمخالفة عند رغبتها بالمحرمات، وصدق الشاعر حيث قال:

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أقمعت تاقت وإلا تسلت

فمن أسباب الهداية أن يجاهد المرء نفسه على الطاعات ة اجتناب المنهيات يقول تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩]

١ –(المفردات في غريب القرآن: مادة جهد، صـ ١٠١) (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤٠٣/٢).

يقول ابن كثير – رحمه الله –{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا } يعني: الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين { لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } ، أي: لنُبَصرنهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحَواري، حدثنا عباس الهمداني أبو أحمد –من أهل عكا –في قول الله: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} قال: الذين يعملون بما يعلمون، يهديهم لما لا يعلمون.

قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه، وقال: ليس ينبغي لِمَنْ ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حين وافق ما في نفسه (١).

والمجاهدة عي العمل بما أمر الله و أمر رسوله – ﷺ– و الصبر و المصابرة على ذلك فمن فعل ذلك هداه الله إلى سواء السبيل.

يقول الماوردي – رحمه الله –قوله: {وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا} فيه أربعة أوجه:

أحدها: قاتلوا المشركين طائعين لنا.

الثاني: جاهدوا أنفسهم في هواها خوفًا منا.

---

١ – تفسير ابن كثير –(ج ٦ / ص ٢٩٦)

الثالث: اجتهدوا في العمل بالطاعة والكف عن المعصية رغبة في ثوابنا وحذراً من عقابنا.

الرابع: جاهدوا أنفسهم في التوبة من ذنوبهم.

{لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} فيه أربعة تأويلات:

: أحدها: يعني الطريق إلى الجنة، قاله السدي.

الثاني: نوفقهم لدين الحق، حكاه النقاش.

الثالث: معناه الذين يعملون بما يعلمون يهديهم لما لا يعلمون، قاله عباس أبو أحمد.

الرابع: معناه لنخلصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم، قاله يوسف بن أسباط.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} أي في العون لهم، الله أعلم)[1]

ويقول جل علاه: {فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ} [محمد:٢١] ومن طلب الهداية هداه الله، ومن طلب الزيغ أزاغ الله قلبه، قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف:٥]

[1] – النكت والعيون – (ج ٣ / ص ٣٠٩)

كان – ﷺ– يقول في خطبة الحاجة: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا».(١)

عن عمران بن حصين، قال: قال النبي – ﷺ– لأبي: "يا حصين كم تعبد اليوم إلها؟

" قال أبي: سبعة: ستا في الأرض، وواحدا في السماء.

قال: "فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟

" قال: الذي في السماء.

قال: "يا حصين، أما إنك لو أسلمت، علمتك كلمتين تنفعانك".

قال: فلما أسلم حصين، قال: يا رسول الله، علمني الكلمتين اللتين وعدتني.

فقال: "قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي »(٢).

فمَنْ لم يَسلمْ من شرِّ نفسه لم يَصِلح إلى الله تعالى، لأنها تحولُ بينه وبين الوصول إليه، والناسُ قسمان: قسم ظَفِرَتْ به نفسُه، فَمَلَكَتْه وأهلكته وصار مُطيعـًا لها، وقسمٌ ظَفِرَ بنفسِه فقَهَرها حتى صارت مطيعةً له، وقد ذَكَر الله القسمين في قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ

---

١ – الترمذي: النكاح (٤١٣/٢) ح () ١١٠٥، وابن ماجة: النكاح (٦٠٩/٢) ح (١٨٩٢) ، وأبو داود: النكاح (٢٣٨/٢) ح (٢١١٨) .

٢ – وأخرجه أحمد (١٩٩٩٢)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" (٩٩٣) و (٩٩٣ م) و (٩٩٤)، وابن حبان (٨٩٩) و أخرجه: الترمذي (٣٤٨٣)، وقال: «حديث غريب»، وهو حديث ضعيف.

الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧-٤١]

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والربَّ يأمُرُ عبدَه بخوفِهِ ونهي النَّفْسِ عَنِ الهوى، والعبدُ إمَّا أن يُجيبَ داعيَ النفس فيَهْلِكَ، أو يُجيبَ داعيَ الربِّ فيَنْجُوَ، والنفس تأمرُ بالشحِّ وعدم الإنفاق في سبيل الله، والربُّ يدعو إلى الإنفاق في سبيله، فيقول سبحانه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦].

فالنفس تسمَحُ بالملايين في سبيلِ البَذَخِ والإسراف، ولا تسمَحُ بالقرشِ للفقير والمحتاج، وتارةً أمَّارةً بالسُّوءِ، تكونُ تارةً تلوم صاحبَها بعد الوقوع في السوء، وتارةً مطمئنةً، وهي التي تسكن إلى طاعةِ الله ومحبته وذكرِه، فكونُها مطمئنةً وصفُ مدحٍ لها، وكونُها أمَّارةً بالسوء وصفُ ذمٍّ لها، وكونُها لوَّامةً ينقسمُ إلى المدحِ والذمِّ.

وجهادُ النفس يكون بمحاسبتها ومخالفتها، وفي الحديث: عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ عز وجل» (١)

---

١ – أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٥) وإسناده ضعيف. وأبو بكر بن أبي مريم هو: أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغسّاني، قال الحافظ: ضعيف، وكان قد سُرق بيته واختلط. التقريب (٨٠٣١)، وانظر قول الذهبي في الكاشف (٢/ ٤١١) رقم (٦٥٢٦).

ومعنى (دانَ نفسه): حاسبَها...

وعن عمرَ بنِ الخطاب - رضي الله عنه - قال:(حاسِبُوْا أنفُسَكم قبل أن تحاسَبُوا وزِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، فإنَّه أهونُ عليكم في الحساب غداً أن تحاسِبُوا أنفسَكم اليومَ، وتُزينوا للعرض الأكبر): ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].(١)

وقال ميمونُ بن مِهْران: لا يكونُ العبد تقيّاً حتى يكونَ لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشريكِ لشريكه.(٢)

ولهذا قيلَ: النفسُ كالشريك الخَوَّانِ، إنْ لم تُحاسبْه ذهبَ بمالك.

وكتب عمر بنُ الخَطَّاب رضي الله عنه إلى بعض عماله: حاسِبْ نفسَك في الرَّخاء قبل حسابِ الشدة، فإنَّ مَنْ حاسبَ نفسه في الرخاء قبل حسابِ الشدة عادَ أمره إلى الرضا والغِبْطة، ومَنْ ألهَتْه حياتُه وشغَلَتْه أهواؤُه عاد أمرُه إلى الندامة والحسرة.(٣)

"عن الحسن قال: المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن المؤمن

---

١ - أخرجه أحمد في "الزهد" ص ١٢٠، وابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس" (٢)، وأبو نعيم في "الحلية" من طريق سفيان بن عيينة، عن جعفر بن برقان، عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر.

٢ - سُنَنِ التِّرْمِذِيُّ " فِي كِتَابِ صِفَةِ القِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ بِرَقْمِ: ٢٤٥٩]

٣ - محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (٥٩) ، إغاثة اللهفان (٩٥)

يفجأه الشيء ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما صلةٌ إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: هيهات ما أردت إلى هذا وما لي ولهذا. (١)

فحَقٌّ على العاقلِ الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يَغْفُلَ عن محاسبهِ نفسه في حركاتِها وسكناتها وخُطُواتِها وخطراتها.

يقول الإمامَ ابنُ القيم رحمه الله:

إذا عرف هذا فالجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

---

١ – حلية الأولياء (٢/ ١٥٧). محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا (ص: ٦٠).

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات. (١)

وفي وصية لقمان لابنه قال: (يا بُنيِّ، إن الإِيمانَ قائدٌ، والعمل سائق، والنفس حَرُونٌ، فإن فَتَرَ سائقُها ضلَّت عن الطريق، وإنْ فَتَرَ قائدُها حَزَنَت، فإذا اجتمعا استقامَتْ).(٢)

إنَّ النفسَ إذا أُطمعت طَمِعَتْ، وإذا فُوِّضَتْ إليها أساءَتْ وإذا حَمَلْتَها على أمرَ الله صَلَحَتْ، وإذا تركتَ الأمرَ إليها فَسَدَت، فاحذَرْ نفسك واتهمْها على دينك، وأنزلْها منزلةَ مَنْ لا حاجة له فيها ولا بُدَّ له منها، وإنَّ الحكيمَ يُذِلُّ نفسَه بالمكاره حتى تعترفَ بالحقِّ، وإنَّ الأحمقَ يُخَيِّرُ نفسَه في الأخلاق، فما أَحبّت منها أحبَّ وما كَرِهَتْ منها كره...

قال بعض السلف: "جاهدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت" أربعين سنة؟! فبلغ ذلك الكلام بعض العلماء فقال: أَوَقد استقامت؟ يغبطه بعد أربعين سنه أنها استقامت".

---

١ – زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٩).

٢ – «ذم الهوى» (ص٤٢).

وذُكِرَ عن ابن المنكدر-رحمه الله- أنه قال: "كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت".(١)

كان ثابت البناني يقول كابدت نفسي على القيام عشرين سنة!! وتلذذت به عشرين سنة. (٢)

ونُقِلَ عن بعض السلف أنه قال: "أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر، وأذن المؤذن إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا، فحاك ذلك في صدري فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال: كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم".(٣)

وَعَوَّدتُ نَفسي عادَةً فَلَزِمتُها أَراهُ عَظيمـًا أَن أُفارِقَ عادَتي

أَيا نَفسُ ما الدُنيا بِأَهلٍ لِحَيِّها دَعيها لِأَقوامٍ عَلَيها تَعادَتِ

أَلا كُلُّ نَفسٍ طالَ في الغَيِّ عُمرُها تَموتُ وَإِن كانَت عَنِ المَوتِ حادَتِ

أَلا أَينَ مَن وَلّى بِهِ اللَهوُ وَالصِبا وَأَينَ قُرونٌ قَبلُ كانَت فَبادَتِ

كَأَن لَم أَكُن شَيئـًا إِذا صِرتُ في الثَرى وَصارَ مِهادي رَضرَضـًا وَوِسادَتي

---

١ – «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ط السعادة» (٣/ ١٤٧)

٢ – «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ط السعادة» (٣/ ١٤٧)

٣ – «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤١١)

وَما مَلجَأٌ لي غَيرَ مَن أَنا عَبدُهُ إِلى اللَهِ رَبّي شِقوَتي وَسَعادَتي [1]

قال أبو عثمان المغربي رحمه الله تعالى: من ظن أنه يُفتح له بهده الطريقة أو يكشف له عن شيء منها لا بلزوم المجاهدة فهو في غلط.

وقال أبو عثمان المغربي-رحمه الله -: لا يرى أحد عيب نفسه وهو مستحسن من نفسه شيئًا، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال [2].

وقال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى: سمعت السري السقطي يقول: يا معشر الشباب جِدُّوا قبل أن تبلغوا مبلغي فتضعفوا وتُقصِّروا كما ضعفتُ وقَصَّرْتُ. وكان في ذلك الوقت لا يلحقه الشباب في العبادة.[3]

وقال أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: من زين ظاهره بالمجاهدة حسَّنَ الله سرائره بالمشاهدة، قال الله تعالى: {والذين جاهدوا فينا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا} [العنكبوت: ٦٩][4]

واعلم أنه من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة.

وقال الإمام البركوي رحمه الله تعالى: ما أسرع هلاك من لا يعرف عيبَه، فإن المعاصي بريد الكفر. [5]

---

[1] – «مجموعة القصائد الزهديات» (٢/ ٢٤٠).

[2] – «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٢٠).

[3] – «الرسالة القشيرية» (١/ ٢١٧).

[4] – «الرسالة القشيرية» (١/ ٢١٦).

[5] – «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٢٠).

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى: إنَّ نجاة النفس أنْ يخالف العبدُ هواها، ويحملَها على ما طلب منها ربُّها.

وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى: لا بد للمريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق، وهي مُظهِر ومجلاة للنهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فمن رأيناه جادًّاً في طلب الحق باذلاً نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية؛ علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأيناه مقصِّراً علمنا قصوره عما هنالك.

وقد قالوا: من حقق الأصول نال الوصول، ومن ترك الأصول حُرم الوصول.

وقالوا أيضًا: مَنْ لم تكن له بداية محرقة "بالمجاهدات" لم تكن له نهاية مشرقة. والبدايات تدل على النهايات.

أركان المجاهدة للنفس أربعة:

ذكر أهل التربية والسلوك أركانًا أربعة للمجاهدة هي:

العزلة والصمت والسهر والجوع.

والمقصود بالعزلة أن يعتزل أهل الغفلة والدنيا ويصحب من يعينه على دينه.

ويقصد بالصمت كف اللسان عن المخالفات والمحرمات.

وبالسهر قيام الليل بالعلم والطاعات.

وبالجوع الصوم للنوافل وما يكسر شهوة النفس.

قال إِبْرَاهِيم بْن أدهم –رحمه الله – يَقُول: لَنْ ينال الرجل درجة الصالحين حَتَّى يَجُوز ست عقبات :

أولها أَن يغلق بَاب النعمة ويفتح بَاب الشدة.

وَالثَّانِي أَن يغلق بَاب العز ويفتح بَاب الذل.

والثالث أَن يغلق بَاب الراحة ويفتح بَاب الجهد.

والرابع أَن يغلق بَاب النوم ويفتح بَاب السهر.

والخامس أَن يغلق بَاب الغنى ويفتح بَاب الفقر.

والسادس أَن يغلق بَاب الأمل ويفتح بَاب الاستعداد للموت.»[1]

****

[1] –«الرسالة القشيرية» (١/ ٢١٧):

سادسا: من أسباب الهداية التدبر في آيات الكون

أخي القارئ: إن التفكر في الكون من أعظم سبل الهداية وأجلاها، إذ هو النظر بعين البصيرة في خلق الله، والتأمل في عجائب السنوات والأرض، وما فيهما من إتقان وإحكام يدل على الخالق سبحانه. فمن أعمل عقله في آيات الكون، ووقف عند عجائب الخلق، قاده ذلك إلى الإيمان واليقين، وفتح الله على قلبه أبواب الهداية.

وقد حثّ القرآن الكريم على التفكر في مواضع كثيرة، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-١٨].

فالتفكر ليس مجرد نظرٍ عابر، بل هو تدبرٌ عميق يوقظ القلب من غفلته، ويُزيل عنه حجب الجهل، ويربط العبد بخالقه. وهو سبيلٌ يسلكه أولو الألباب، فيزدادون إيمانًا وهدى، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

لماذا لا تتفكر في الأرض؟

انظر وتأمل في الكون من حولك قال الله تعالى {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق:٩-١١].

يقول أبو نواس:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجينٍ شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

ويكون ذلك بالتفكر في الآتي: التفكر في آيات الله الكونية: في السماء في الأرض في الذوات في المخلوقات في الكائنات في العجماوات في الجمادات في الزواحف في الحشرات كلها تدلك على رب الأرض والسماوات.

والنَّظر في ملَكوت السموات والأرض يتطلَّب أن يَقف الإنسان على ما تمَّ التوصُّل إليه من علومٍ هدى الله الناسَ إليها؛ ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإنَّ الوقوف على بَعض هذه العلوم يُتيح للإنسان فَهْمَ الحِكمة من هذا القَسَم الذي أقسمَه ربُّنا عزَّ وجلَّ حين يقول: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، وكما يقول علماء اللُّغة: فإنَّ النَّفي الذي يَسبق القسَم يدلُّ على عِظَم القسَم، وبالتالي على عِظم المقسَم به.

وإذا كان العِلم قد توصَّل إلى معرفة أنَّ الشمس أكبرُ حجمًا من الأرض بمقدار مليون وثلث مليون مرَّة؛ فقد توصَّل بعد ذلك إلى أنَّ نجم "الشِّعرى" الذي ورد ذِكره في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ [النجم: ٤٩]، توصَّل العِلم إلى أنَّ هذا النَّجم أكبر من الشمس ٥٠٠ مرَّة وأكثر ضوءًا منها بمِقدار ٥٠ مرة، ولكن ضوءه لا يصِل إلينا؛ للمسافةِ الشَّاسعة التي بَينه وبين الأرض، والتي تَبلغ مليونًا من المرَّات ممَّا بين الشمس والأرض.

وكلَّما وقف الإنسان على شيء ممَّا يتمُّ التوصُّل إلى معرفته عن هذه الكواكِب والمجرَّات ازداد يقينًا بأنَّ مُلك الله عزَّ وجلَّ ملكٌ واسِع عريض، لا يُمكن للعقول أن تَصِل إلى حدوده أو أبعاده.

وفي خلق الإنسان من مواضع التفكر والاعتبار، ما يدل على إتقان خلق الجبار - تبارك وتعالى - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الرُّوم: ٢٠]، خلقه الله من منيٍّ يمنى، وحوَّله من نطفة قذرة إلى إنسان سويّ مكرم، وسخر له المخلوقات ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ [عبس: ١٧- ٢٢] ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [الزُّمر: ٦] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا

النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

آيات بينات في هذا المخلوق الضعيف، آياتٌ في لحمه وعظمه، وجسده وروحه، وحركته وسكونه، وعقله وإدراكه.

وأكثرُ الناس تفكّرًا رسول الله -ﷺ- أخرج ابن حبان في صحيحه بإسناد جيد عن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لعائشة: "أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم" قالت: "وأيُّ شأنه لم يكن عجبًا! إنه أتاني ليلة فدخل معي في لحافي، ثم قال: ((ذريني أتعبدُ لربي)). فقام فتوضأ، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله! ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر"؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا، ولمَ لا أفعل وقد أُنزل علي هذه الليلة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١] ثم قال: ((ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها))(١).

---

١ -أخرجه ابن حبان (٦٢٠) وأبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم (١٨٦) وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" إلى عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التفكر، وابن المنذر وابن مردويه في الترغيب، وابن عساكر (١/ ١٩٥) وجوّد إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨) وانظر: "الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان" (٦٢٠) و"موارد الظمآن" (٥٢٣).

قيل للإمام الأوزاعي: "ما غاية التفكر فيهن"؟.

قال: "يقرؤهن وهو يعقلهن"(١).

وقال أبو سليمان الداراني-رحمه الله: "إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة، ولي فيه عبرة"(٢) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة"(٣).

، وفي قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. قال الحسن رحمه الله: معناه: "أمنع قلوبهم التفكر في أمري"(٤)،

وقال بشر الحافي: "لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه"(٥) .

وقال عمر بن عبدالعزيز: "الفكرة في نعم الله أفضل العبادة"(٦) ، وبكى رحمه الله يومًا بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال: "فكَّرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها

---

١ -"تفسير ابن كثير (١/ ٩٥٨).

٢ -"الدر المنثور" للسيوطي (١/ ١٩٥) و"إتحاف السادة المتقين" للزبيدي (١٣/ ٣٠٩).

٣ - أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤٢) والديلمي، كما في "فردوس الأخبار" (٢٢١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما وأخرجه أحمد في "الزهد" (١٧٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٩) والبيهقي في الشعب (١١٨) عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - وأخرجه الديلمي كما في "فردوس الأخبار" (٢٢١٥) عن أنس - رضي الله عنه - بنحوه، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة من حديث أبي هريرة مرفوعاً (٤٣) ولا يصح مرفوعاً، انظر: "الموضوعات" لابن الجوزي (١٤٣-١٤٤) و"اللآلئ المصنوعة" (٢/ ٣٢٧) و"تنزيه الشريعة المرفوعة" (٢/ ٣٠٥) و"الفوائد المجموعة" (٢٤٢) وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٧٣).

٤-إتحاف السادة المتقين" (١٣/ ٣١٠).

٥ -تفسير ابن كثير (١/ ٦٥٨).

٦ -"إتحاف السادة المتقين" (١٣/ ٣١٠).

فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتُها، ولئن لم يكن فيها عبرةٌ لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادَّكر". ا هـ[1].

آيات كونية تأخذ بأيدي الحيارى إلى رب البرايا:

الآية الأولى: بيان نشأة الكون: إخوة الإسلام، نقف مع آية تحدثنا عن نشأة هذا الكون وتخبرنا عن بدايته؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وفي هذه الآية يقول المفسرون بأن السماوات والأرض كانتا في بدء خلقهما ملتصقتين، ثم فصلهما الله سبحانه وتعالى عن بعضهما البعض، والآية الكريمة تعد من عجائب الإعجاز العلمي في القرآن؛ لأنها سبقت معطيات علماء الفلك المحدثين من أن الكون كله كان كتلة واحدة في أبسط صور التجمع، وذلك قبل أن يصبح على وضعه الحالي، ثم حدث الفَتق والانفصال بين أجزاء هذه الكتلة، ونشأت الأجرام السماوية، بما فيها الأرض التي نعيش عليها، وهم حتى الآن لا يدرون بالضبط كيف حدث هذا.

وواضح أن السماوات -بالجمع لا بالإفراد -هي والأرض تشمل الكون كله في حالته السديمية الأولى، قبل أن تتخلق سماوات وأرضين؛ كما أخبر الله سبحانه وتعالى في سورة الطلاق: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ

[1] -تفسير ابن كثير (١/ ٦٥٨).

شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]، ونقول لمنكري الإعجاز العلمي بالقرآن الكريم: اعقلوا وتدبروا.

الآية الثانية بيان حالة الفضاء وما فيه من ظلام دامس: إخوة الإسلام: إن القرآن الكريم كتاب رب العالمين الذي خلق الخلق، وأوجد الأشياء من عدم، وها هو سبحانه يخبرنا عن حقيقة قرآنية، وعن آية كونية أخرى، لا يملك المسلم أمامها إلا أن يسجد لله تعالى؛ يقول الله سبحانه وتعالى وهو يحدثنا عن الفضاء الجوي: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، يشير إلى صعود الإنسان في الفضاء، وإلى بعض ما يشاهده في الفضاء الكوني، ومعنى: ﴿ سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ هو: سُدَّت ومُنعت عن الإبصار، وفي هاتين الكلمتين إشارة علمية إلى الظلام الدامس الذي يُخيِّم على الفضاء الكوني، لتصبح العيون غير قادرة على الرؤيا، وكأنها ممنوعة من الإبصار.

ومعنى ﴿ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ هو: على غير طبيعتنا، وفي ذلك إشارة إلى ما يواجهه الإنسان وهو في الفضاء الكوني من أحوال غير مألوفة؛ كمنظر الأجرام السماوية بأحجامها وألوانها المغايرة لِما هو مألوف على الأرض، وكمنظر المذنبات السابحة في السماء بذيولها وألوانها، بالإضافة إلى الشعور بانعدام الوزن، وضيق الصدر، وانعدام سماع الصوت، وتأثير الأشعة الكونية المنتشرة في الفراغ، إلى غير ذلك من المتغيرات التي يقابلها الصاعدون في السماء،

يظنون أنهم قد سُحروا، وهذا ما يشعر به ويشاهده رواد الفضاء الذين يصعدون في السماء.

وبهذا تكون الآية الكريمة قد أشارت إجمالًا إلى ما يحدث لأهل الأرض عندما يصعدون في الفضاء الكوني، وهو ما لا يمكن إدراكه إلا لمن صعِدوا فعلًا؛ ولذلك فإن وجود هذه الإشارات العلمية وأمثالها بالقرآن الكريم إنما هو من قبيل الإعجاز العلمي لهذا الكتاب الموحَى به من عند الله العليم الخبير على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ونقول للمتخوِّفين والمتحفِّظين: اقبلوا ولا ترددوا.

الآية الثالثة: بيان حالة الإنسان عند الصعود إلى الفضاء: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

جاء على سبيل الهداية، وهذا من مقاصد القرآن الأساسية، ولكن هذه الآية حملت إشارة علمية في قوله تعالى: ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، والحقيقة العلمية التي يشير إليها النص القرآني؛ وهي ضيق الصدر، أصبحت من المعارف المؤكدة علميًّا وتجريبيًّا في طب الفضاء، وأولى الملاحظات عنها كانت بعدما يزيد عن ألف سنة من نزول القرآن، والسؤال المطروح هو: كيف استطاع هذا النبي الأمي - سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم – وهو الذي عاش كبقية مجتمعه بعيدًا عن حياة الجبال الشاهقة أن يصف ظاهرة تصعُّد الإنسان في الفضاء، وما يصاحبها من ضيق شديد في الصدر؟ لا بد أن يكون الجواب هو أن القرآن الذي جاء به ذلك النبي الأمي صلى الله عليه وسلم وحيًا من الخلَّاق العليم، وأن ما بالقرآن من إشارات علمية هو ولا شك من إعجازه.

الآية الرابعة البحر المسجور: معاشر الموحدين، من الحقائق والآيات القرآنية والكونية ما أخبرنا به ربنا سبحانه وتعالى عن البحر المسجور؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ [الطور: ٦].

عندما تطَّلِع على أقوال المفسرين القدامى تجدهم يصرفون الآية إلى أحداث يوم القيامة، وقالوا: البحر الملتهب، كما أنهم صرفوها إلى أحداث الدنيا، وقالوا: البحر الممتلئ بالماء، والصواب هو أن الآية عن أحداث الدنيا؛ لأن الآيات التي سبقتها كلها تتحدث عن أشياءَ في الدنيا قبل الآخرة؛ فطور سيناء، والقرآن، والبيت المعمور في السماء، وسقف السماء المرفوع، الواردة بالآيات الخمسة السابقة لتلك الآية، كلها موجودة حاليًّا، فإذا أخذنا بتفسير "البحر الملتهب"، وذلك لمن جعل "المسجور" بمعنى الملتهب، يكون بالآية إشارة علمية إلى حقيقة كونية لم تُعرَف إلا حديثًا؛ وهي المياه الملتهبة في قاع المحيطات، ولم يبدأ العلماء في دراسة قاع المحيطات إلا منذ عام ١٩٢٠م بعد اختراع أجهزة الغطس، ولم يتمكنوا من دراسة قاع المحيطات العريقة إلا في

أوائل النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، بعد اختراع أجهزة التصوير في أعماق البحار، ولقد وجدوا بقاعًا كثيرةً من المحيطات العميقة عبارة عن براكين متفجرة باللهب، وإذا استبعدنا المعارف البشرية لهذه الظاهرة البحرية المتمثلة في البحار الملتهبة تصبح هذه المعلومات من مصدر غير بشريٍّ، ولا تكون إلا وحيًا من الله سبحانه وتعالى أنزله بعلمه في القرآن الكريم، وفي هذا دليل على إعجازه العلمي.

الآية الخامسة البرزخ بين المِلح والعذب: ومن الآيات الدالة على قدرة القدير جل جلاله ما نراه ونشاهده في التقاء البحرين العذب والمالح، ونرى أن هذا لا يطغى على ذلك؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]، يقول فيه المفسرون: أرسل الله سبحانه وتعالى البحر المالح والعذب متجاورين، ويلتقيان ولا يمتزجان بسبب حاجز بينهما من صنع الله سبحانه وتعالى

وقد تم اكتشاف الحواجز بين البحار المالحة عند الالتقاء، وكذلك عند منطقة التقاء البحر المالحة مع مياه الأنهار العذبة، وأصبحت تلك الحواجز حقيقة علمية جرى تحديدها وتصويرها ومعرفة طبيعتها، وتبين أنها عبارة عن حاجز مائي يتكون من اختلاط ماء البحرين عند الالتقاء، وهو الحاجز الذي يقوم بمنع امتزاج ماء البحرين، سواء كان بحرًا مالحًا يلتقي مع بحر مالح، أم كان نهرًا عذبًا يلتقي مع بحر مالح.

أليس ذلك من عجائب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم؟ وماذا يقول المنكرون للإعجاز العلمي عن هذا الدليل وغيره من الأدلة التي سبق ذكرها؟! ونقول للمتخوفين: أليس في منهاج دراسة العلماء للإعجاز العلمي وما يقدمونه من دراسات ما يطمئنكم ويقنعكم بأنهم يضيفون الجديد في فَهم الآيات القرآنية؟

الآية السادسة بيان أن من مهام الرياح أنها لواقح: ومن الآيات الكونية والقرآنية تلك المعجزةُ التي أخبرنا عنها العليم الخبير جل في علاه؛ أن من مهام الرياح أنها تقوم بعملية التلقيح؛ يقول الله سبحانه: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]؛ فيه إشارة علمية إلى تدخُّل الرياح في تلقيح الزروع، وذلك يكون بنقل حبوب اللقاح إلى الأعضاء المؤنثة في الأزهار، ولم يفطَن أحد من المفسرين إلى دور الرياح في تلقيح السحب لإنزال المطر، كما لم يُعرف ذلك على وجه الحقيقة العلمية إلا حديثًا.

وقد اكتشف العلماء دور الرياح في تلقيح السحب بأنوية التكاثر من الغبار، أو الملح، أو قطرات ماء البحار، والجمع بين السحاب وكهربائيته السالبة، وكهربائيته الموجبة، فيما يشبه التلقيح، وكل ذلك يترتب عليه سقوط المطر... ولهذا فتلقيح السحب هو الأقرب إلى فهم المقصود في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وليس تلقيح الزروع كما كان يظن المفسرون القدامى، والسياق في النص يؤكده ذلك المعنى، فالتلقيح هنا يتبعه نزول المطر من السماء؛ أي: إن التلقيح هنا للسحب، وليس للأزهار والأشجار، كما أن تاء

السببية في كلمة: ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ [الحجر: ٢٢] دليلٌ آخر على ذلك المعنى.

الآية السابعة الإعجاز العلمي في مراحل خلق الجنين: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

لقد نال خلق الإنسان اهتمامًا كبيرًا من القرآن الكريم، وجاءت به إشارات علمية في هذا الموضوع على جانب من الأهمية، وهي تمثل حقائقَ عن تكوين الجنين وعن أطواره داخل الرحم، لم تكن معروفة إلى وقت قريب، وكانت كل المعلومات عن تكوين الجنين مغلوطة حتى القرن العشرين؛ ففي القرن السابع عشر الميلادي كان المعتقد أن الإنسان يُخلق خلقًا كاملًا في الحيوان المنوي للرجل على صورته الإنسانية؛ أي: إنه لا يمر بأطوار في رحم الأم، وفي القرن الثامن عشر عندما اكتشف العلماء بويضة المرأة، قالوا: إن بويضة المرأة هي التي خُلق فيها الإنسان كاملًا.

وأخيرًا جاء العلم الحديث ليعطي المعلومات الدقيقة عن تكوين الجنين ومراحل تطويره، والتي جاءت مطابقة لِما ورد بآيات القرآن الكريم، وليعلن على لسان العلماء سَبْقَ القرآن وإعجازه العلمي، والآية القرآنية المذكورة آنفًا

تشير إلى المراحل البيولوجية لخلق الإنسان، منذ أن يكون نطفة إلى أن يصبح إنسانًا كاملًا.

وقد حظيَت هذه الآية القرآنية – ونظائرها التي تناولت خلق الإنسان – باهتمام كبير من جانب كبار علماء الأجنة العالميين – مسلمين وغير مسلمين – نظرًا لما بها من حقائق علمية بارعة، جاءت بأدق العبارات والكلمات، وقاموا بمناقشة الطرح القرآني لموضوع الأجنة من خلال أبحاثهم التي حرروها على ضوء تلك الآية القرآنية، ولم يسعْهم إلا أن يعلنوا إعجابهم وتقديرهم بالإشارات العلمية التي جاءت بها، واعترفوا بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

وهذا هو واحد من مشاهير علماء الأجنة، الأستاذ الدكتور/ كيث مور، الذي يعتبر واحدًا من أشهر ثمانية في العالم في ذلك العلم، يلقي عدة محاضرات بعنوان "مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة"، كما يقوم بتأليف كتاب دراسي في علم الأجنة يستخدم فيه الكلمات القرآنية: نطفة، علقة، مضغة؛ اعترافًا منه بالدقة العلمية الفائقة لهذه الكلمات.

وإلى المعارضين نوجِّه النداء بالاقتداء بأولئك العلماء الذين حكَّموا العقل، واحتكموا إلى العلم، وتجردوا من الهوى والتزموا الإنصاف.

الآية الثامنة الإعجاز العلمي في بيان خلق السمع قبل البصر: إخوة الإسلام، ومن الآيات المعجِزة التي تدل على إعجاز القرآن الكريم تلك الآيةُ التي يحدثنا الله فيها عن نعمة السمع والبصر والفؤاد، نجد أن الله تبارك وتعالى قدَّم السمع

على البصر؛ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٩].

من المعلوم أن السمع يذكر مقدمًا على البصر في أكثر الآيات القرآنية التي جاء ذكرها فيها، وهناك حقيقتان علميتان تفسران سبق السمع للبصر:

أما الحقيقة الأولى: فقد أثبتتها كشوف علم الأجنة، وهي أن جهاز السمع يتطور في الجنين قبل جهاز البصر، ويتكامل وينضج حتى يصل إلى حجمه الطبيعي في الشهر الخامس من حياة الجنين، في حين لا يتكامل نضج العينين إلا بعد الولادة، والجنين يسمع في بطن أمه – وبالتحديد في الشهر الخامس من حياته الجنينية – في حين لا يستطيع الإبصار إلا بعد ولادته؛ أي تتطور وتنضج كل المكونات العصبية لحاسة السمع، قبل نضج مثيلاتها البصرية بفترة طويلة نسبيًّا.

وأما الحقيقة الثانية: وهي أن مراكز السمع توجد بالمخ في موضع متقدم عن مراكز البصر.

الآية التاسعة الجلد هو مركز الإحساس: إخوة الإسلام، ومن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أن الله سبحانه بيَّن لنا حقيقة علمية لم يكتشفها العلم الحديث إلا قريبًا؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦].

في الآية إشارة علمية إلى أن الأعصاب التي تحس بالحرارة موجودة تحت الجلد مباشرة، بحيث إذا احترق الجلد، انتهى الإحساس بالألم تمامًا، وهذه حقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثًا، وبهذه الإشارة العلمية فإن أستاذ التشريح العالم (تاجاسن) شهِد بمعجزة القرآن، وأعلن إسلامه في المؤتمر الطبي السعودي في سنة ١٩٨٢م.

الآية العاشرة بيت العنكبوت: أمة الإسلام، إن من الآيات القرآنية التي تبين لنا عظمة القرآن، وأنه كتاب رب العالمين تلك الآيةَ التي تتحدث عن العنكبوت، وعن بيته، وأن أوهن البيوت بيت ذلك الكائن، فلماذا هي أوهن البيوت؟ وما وجه الإعجاز العلمي في الآية؟

الجواب: يقول تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١]، ما زالت هذه الآية تحير العلماء والباحثين، قديمًا وحديثًا، فالقرآن الكريم قد أخبر أن أوهن البيوت على الإطلاق هو بيت العنكبوت، وقد أثبت العلم الحديث أن بيت العنكبوت منسوج من أقوى الخيوط، التي تستطيع مقاومة الرياح العاتية، ويمسك في نسجه فرائس العنكبوت، من الحشرات، التي هي أكبر من العنكبوت دون أن يتخرق، وهذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يكتشفها

بنفسه؛ حيث يمكنه بسهولة إزاحة بيت العنكبوت بسبب وزنه الخفيف، ولكن يصعب عليه قطعه، أو تغيير شكله الهندسي الدقيق!

الوهن المعنوي: إن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية هو أوهن بيت على الإطلاق؛ لأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد؛ وذلك لأن الأنثى في بعض أنواع العنكبوت تقضي على ذَكَرِها، بمجرد إتمام عملية الإخصاب، وذلك بقتله وافتراس جسده؛ لأنها أكبر حجمًا، وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة، وفي بعض الأنواع تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها الذي عادة ما تحتضنه في كيس من الحرير، وعندما يفقس البيض تخرج العناكب، فتجد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام، أو من أجل المكان، أو من أجلهما معًا، فيقتل الأخ أخاه وأخته، وتقتل الأخت أختها وأخاها، حتى تنتهي المعركة ببقاء عدد قليل من العناكب التي تنسلخ من جلدها، وتمزق جدار كيس البيض لتخرج الواحدة تلو الأخرى، والواحد تلو الآخر بذكريات تعيسة، لينتشر الجميع في البيئة المحيطة، وتبدأ كل أنثى في بناء بيتها، ويهلك في الطريق إلى ذلك من يهلك من هذه العناكب، ويكرر من ينجو منها نفس المأساة التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت شراسة ووحشية، وانعدامًا لأواصر القربى، ومن هنا ضرب الله تعالى به المثل في الوهن والضعف؛ لافتقاره إلى أبسط معاني

التراحم بين الزوج وزوجه، والأم وصغارها، والأخ وشقيقه وشقيقته، والأخت وأختها وأخيها، قام أحد العلماء بدراسة طبيعة البيت العنكبوتي من الداخل، فوجد أن الذَّكَرَ بعد أن يقوم بتلقيح الأنثى، تقوم الأنثى بافتراسه وتتغذى على لحمه طيلة فترة الحضانة للبيض، وبعد أن يفقس البيض تتغذى اليرقات على أضعفها، ثم بعد أن يقوى ويشتد عود ما تبقى من الصغار، تقوم بأكل أمها؛ لأنها أصبحت أضعف الموجود، ثم يلقح الذكر الأنثى، ثم تقوم بأكله، وهكذا دواليك؛ ومن هنا فإن الضعف في بيت العنكبوت في ضعف الترابط الأسري بين أعضائه.

أخيرًا أيها الكرام، فهذه أمثلة قليلة عن آيات الله عز وجل في النفس، وفي الكون من حولنا، والتي تقود كل صاحب فطرة صحيحة، وقلب سليم، وعقل سويٍّ -إلى الإيمان برب هذا الكون العظيم، ولمَ لا وهو الذي أمرنا بالنظر والتفكر؟ قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

العالم البريطاني آرثر أليسون:

عندما حضر البروفيسور "آرثر أليسون" رئيس قسم الهندسة الكهربائية والإلكترونية بجامعة لندن إلى القاهرة عام ١٩٨٥ ليشارك في أعمال المؤتمر الطبي الإسلامي الدولي حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، كان يحمل معه بحثه الذي ألقاه، وتناول فيه أساليب العلاج النفسي والروحاني في ضوء

القرآن الكريم، بالإضافة الى بحث آخر حول النوم والموت والعلاقة بينهما في ضوء الآية القرآنية الكريمة: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: ٤٢].

الغريب في الأمر أنه لم يكن _وقتئذ _ قد اعتنق الإسلام، وإنما كانت مشاعره تجاهه لا تتعدى الإعجاب به كدين.

وبعد أن ألقى بحثه جلس يشارك في أعمال المؤتمر، ويستمع إلى باقي البحوث التي تناولت الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فتملكه الانبهار وقد ازداد يقينه بأن هذا هو الدين الحق.. فكل ما يسمعه عن الإسلام يدلل بأنه دين العلم ودين العقل.

فلقد رأى هذا الحشد الهائل من الحقائق القرآنية والنبوية، والتي تتكلم عن المخلوقات والكائنات، والتي جاء العلم فأيدها، فأدرك أن هذا لا يمكن أن يكون من عند بشر.. وما جاء به رسوله محمد – ﷺ– من أربعة عشر قرنـًا يؤكد أنه رسول الله حَقّـًا..

وأخذ "أليسون" يستفسر ويستوضح من كل مَن جلس معه عن كل ما يهمه أن يعرفه عن الإسلام كعقيدة ومنهج للحياة في الدنيا ... حتى لم يجد بُداً من أن يعلن عن إيمانه بالإسلام ... وفي الليلة الختامية للمؤتمر، وأمام مراسلي وكالات الأنباء العالمية، وعلى شاشات التليفزيون، وقف البروفيسور "آرثر

أليسون" ليعلن أمام الجميع أن الإسلام هو دين الحق ... ودين الفطرة التي فطر الناس عليها ... ثم نطق بالشهادتين أمام الجميع بصوت قوي مؤمن:

"أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله".

وفي تلك اللحظات كانت كبيرات المسلمين من حوله ترتفع، ودموع البعض قد انهمرت خشوعـًا ورهبة أمام هذا الموقف الجليل.

ثم أعلن البروفيسور البريطاني عن اسمه الجديد "عبد الله أليسون" ... وأخذ **يحكي قصته مع الإسلام فقال:**

إنه من خلال اهتماماتي بعلم النفس، وعلم ما وراء النفس، حيث كنت رئيسـًا لجمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية لسنوات طويلة ... أردت أن أتعرف على الأديان، فدرستها كعقائد، ومن تلك العقائد عقيدة الإسلام، الذي وجدته أكثر العقائد تمشيـًا مع الفطرة التي ينشأ عليها الإنسان ... وأكثر العقائد تمشيـًا مع العقل، من أن هناك إلهـًا واحداً مهيمنـًا ومسيطراً على هذا الوجود ... ثم إن الحقائق العلمية التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية من قبل أربعة عشر قرنـًا قد أثبتها العلم الحديث الآن، وبالتالي نؤكد أن ذلك لم يكن من عند بشر على الإطلاق، وأن النبي محمد - ﷺ - هو رسول الله ثم تناول "عبد الله أليسون" جزئية من بحثه الذي شارك به في أعمال المؤتمر، والتي دارت حول حالة النوم والموت من خلال الآية الكريمة (اللهُ يَتَوفّى الأنفسَ حينَ مَوتِها والتي لم تَمُت في مَنامِها فَيُمسِكُ التي قضى عليها المَوتَ وَيُرسِلُ الأخرى إلى

أجلٍ مسمىً ...) . فأثبت "أليسون" أن الآية الكريمة تذكر أن الوفاة تعني الموت، وتعني النوم وأن الموت وفاة غير راجعة في حين أن النوم وفاة راجعة ... وقد ثبت ذلك من خلال الدراسات الباراسيكولوجية والفحوص الإكلنيكية من خلال رسم المخ، ورسم القلب، فضلاً عن توقف التنفس الذي يجعل الطبيب يعلن عن موت هذا الشخص، أم عدم موته في حالة غيبوبته أو نومه.

وبذلك أثبت العلم أن النوم والموت عملية متشابهة، تخرج فيها النّفسُ وتعود في حالة النوم ولا تعود في حالة الموت.

ثم قرر العالم البريطاني المسلم البروفيسور "عبد الله أليسون" أن الحقائق العلمية في الإسلام هي أمثل وأفضل أسلوب للدعوة الإسلامية، ولا سيما للذين يحتجون بالعلم والعقل. (١)

قصة أعرابي اهتدى بالتفكر في الجمل:

جاء أعرابي إلى مجلس بعض العلماء، فسئل: بما عرفت ربك؟

فقال: «البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج... ألا تدل على اللطيف الخبير؟».(٢)

---

١ – رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا (ص: ٢٣٥–٢٣٦، بترقيم الشاملة آليا)

٢ – ذكره ابن الجوزي في "زاد المسير": (١/ ١٦٦)، و"تلبيس إبليس" (ص ٦٦)، والمقري في "نفح الطيب": (٥/ ٢٨٩) بسياق آخر وزيادة. وما بين المعكوفين منها، وتركه المؤلف نقاطًا

بهذا التفكر البسيط والعميق معـًا، عرف الأعرابي ربه دون كتب ولا دراسة طويلة، فكانت فطرته الصافية ونظره في الكون كافيين لهدايته.

قصة رجل معاصر اهتدى بالتفكر في الجبال:

يُروى عن رجل كان يعيش في غفلة، حتى خرج يومـًا إلى الجبال، فوقف ينظر إلى عظمها وثباتها، وتأمل كيف رُفعت بغير عمد يراها الناس، وكيف أُرسيت بالأوتاد.

فبكى وقال: «من رفع هذه الجبال إلا الله؟ ومن أمسك السماء إلا هو؟».

فرجع إلى بيته تائبـًا، وبدأ يقرأ القرآن، فكانت تلك اللحظة بداية هدايته.

ثامنا: مجالسة الصالحين وزيارتهم

اعلم- بارك الله فيك-أن الصحبة الصالحة من أعظم سبل الهداية وأقواها تأثيراً في القلب والسلوك، إذ الإنسان بطبعه يتأثر بمن يجالس، ويتخلق بأخلاق من يعاشر. فالرفيق الصالح يذكّر بالله إذا نسي، ويعين على الطاعة إذا ضعف، ويصد عن المعصية إذا همّ بها، فيكون سبباً في ثبات العبد على الحق وزيادته من الهدى.

مجالسة الصالحين والنظر إليهم فمن الناس من إذا نظرت إليهم زادك الله هدى وازددت إيمانا ومنهم من تقسوا القلوب برؤيتهم الحديث معهم فيحتاج المسلم إلى مجالسة من تلين القلوب بكلامهم وبعلمهم وذلك لأن القلوب تعلوها سحابة من الغفلة والشهوة فهي بحاجة إلى رياح الإيمان إلا زالت تلك السحب

حديث: ((ما من القلوب إلا وله سحابة كسحابة القمر مضيء إذ علته سحابة فأظلم فإذا تجلت عنه أضاء)) (١)

وفي الصحيحين من حديث أنس قال: خطبنا رسول الله-ﷺ- خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: ((والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا))، قال: فغطىَّ أصحاب رسول الله وجوههم، ولهم خنين(٢)

---

١ -قال الألباني في " السلسلة الصحيحة " ٥ / ٣٣٩: رواه أبو الطيب الحوراني في " جزئه " (٧٠ / ١) و أبو نعيم في " الحلية " (٢/ ١٩٦) و الديلمي (٤ / ٨ – ٩

٢ – أخرجه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩)

عن انس – رضي الله عنه قال: قال رسول الله –ﷺ– إن من الناس ناسا مفاتيح للخير مغاليق للشر)[1]

و عن ابن عباس عن النبي–ﷺ– في قوله: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢] قال : " هم الذين يذكر الله لرؤيتهم [2]

وقال زين العابدين إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه

وعن جعفر قال: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة نظرت إلى وجه محمد بن واسع نظرة وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أنَّ وجهه وجه ثكلى

و كان الإمام احمد إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد أو قيام بحق أو إتباع للأمر:سأل عنه و أحب أن يجري بينه و بينه معرفة ،و أحب أن يعرف أحواله)

يقول ابن القيم –رحمه الله –في ابن تيمية – وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا وأشرحهم صدرا وأقواهم قلبا وأسرهم نفسا تلوح نضرة النعيم على وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا

---

[1] قال الألباني في " السلسلة الصحيحة " ٣ / ٣٢٠: أخرجه ابن ماجة (٢٣٧) و ابن أبي عاصم في " السنة " (٢٥١

[2] – رواه أبو نعيم في " أخبار أصبهان " (١ / ٢٣١) و الواحدي (٥٨ / ١) و الديلمي(١ / ٢ / ٣٤١ و صححه الألباني في الصحيحة (١٦٤٦).

وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها) [1]

وقد قال الإمام الشافعي رحمه لله:

أحب الصالحين ولست منهم لعلي أنال بهم شفاعة

وأكره من تجارته المعاصي وإن كنا سواء في البضاعة

****

[1] – الوابل الصيب [جزء ١ – صفحة ٦٧]

تاسعا: الإنابة والتوبة والرجوع إلى الله جل جلاله.

اعلم -هداني الله و إياك إلى صراطه المستقيم -:أنَّ الإنابة إلى الله تعالى من أعظم المقامات الإيمانية، وأجلِّ المنازل التي يسلكها العبد في طريق الهداية والاستقامة؛ فهي رجوع القلب إلى الله تعالى، وإقباله عليه، وإخلاص التوجه إليه، مع محبته والخضوع له والافتقار إليه. إن الإنابة من العبادات العظيمة التي وصف الله بها أنبيائه وعباده المؤمنين، قال تعالى عن نبي الله داود عليه السلام: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَاب ﴾ [ص: ٢٤]. وقال تعالى عن نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَاب ﴾ [ص: ٣٤].

وقال تعالى عن نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب ﴾ [هود: ٨٨].

وقال تعالى عن نبينا محمد -ﷺ-: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب ﴾ [الشورى: ١٠]. وأثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام لاتصافه بالإنابة إليه والرجوع إليه في كل أمر، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيب ﴾ [هود: ٧٥]. وأمر الله بها عباده فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر: ٥٤]. والصالحون من عباد الله يقولون: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِير ﴾ [الممتحنة: ٤].

قال ابن القيِّم رحمه الله: "الإنابة: الإسراع في مرضاة الله مع الرجوع إليه في كل وقت، وإخلاص العمل له، وقال أيضًا: الإنابة إلى الله إنابتان:

الأولى: إنابة إلى ربوبيته وهي إنابة المخلوقات كلها، المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣].

والثانية: إنابة أوليائه، وهي: إنابة لألوهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه"(١) [١]. اهـ، مختصرًا.

والإنابة إلى الله سبحانه هي مفتاح السعادة، والهداية، قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَاب ﴾ [الرعد: ٢٧].

روى الإمام أحمد في مسنده مِن حَدِيثِ جَابِرٍ رضي اللهُ عنه: أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: "لَا تَمَنَّوُا الْمَوْتَ، فَإِنَّ هَوْلَ الْمُطَّلَعِ شَدِيدٌ (٢)، وَإِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُولَ عُمْرُ الْعَبْدِ، وَيَرْزُقَهُ اللهُ الْإِنَابَةَ"(٣) .

---

١ -"مدارج السالكين" (١/ ٤٣٤).

٢ - قوله: "فَإِنَّ هَوْلَ الْمُطَّلَعِ": قَالَ السِّنْدِيُّ: مَكَانُ الاطِّلَاعِ مِن مَوضِعٍ عَالٍ، يُقَالُ: مُطَّلَعُ هَذا الجَبَلِ مِن مَوضِعِ كَذا، أي: مَأتَاهُ وَمَصعَدُهُ، يُرِيدُ بِهِ: مَا يُشرِفُ عَلَيهِ مِن سَكَرَاتِ المَوتِ وَشَدَائِدِهِ، فَشَبَّهَ بِالمُطَّلَعِ، وَعَلَّلَ النَّهيَ بِذلِكَ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَنَّاهُ لِقِلَّةِ صَبرِهِ وَضَجَرِهِ، فَإِذَا جَاءَ مُتَمَنَّاهُ، ازْدَادَ ضَجَرًا عَلَى ضَجَرٍ، وَيَستَحِقُّ بِذلِكَ مَزِيدَ سَخَطٍ، وَلِأَنَّ السَّعَادَةَ فِي طُولِ العُمْرِ؛ لِأَنَّ الإِنسَانَ إِنَّمَا خُلِقَ لِاكْتِسَابِ السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ، وَرَأسُ مَالِهِ العُمْرُ. هَل رَأَيتَ تَاجِرًا يُضَيِّعُ رَأسَ مَالِهِ؟! "مسند الإمام أحمد" (٢٢/ ٤٢٧).

٣ - "مسند الإمام أحمد" (٢٢/ ٤٢٦) (برقم ١٤٥٦٤)، وقال محققوه: حسن لغيره.

وأخبر سبحانه أن ثوابه، وجنته لأهل الخشية والإنابة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيد * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيب ﴾ [ق: ٣١-٣٣].

وأخبر سبحانه أن البشرى لأهل الإنابة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ [الزمر: ١٧].

ومن صفات العبد المنيب: الاعتبار بالآيات الدالة على عظمة الله تعالى، وعزته وسلطانه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوج * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيب ﴾ [ق: ٦-٨].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيب ﴾ [غافر: ١٣].

والإنابة إلى الله مانعة من العذاب، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُون ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقد أمر الله جميع الخلق بالإنابة والرجوع إليه، قال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾ [الروم: ٣٠-٣١].

وكان من دعاء النبي -ﷺ-أن يرزقه الله الإنابة، روى أبو داود في سننه وأحمد في مسنده مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: "رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي، وَيَسِّرِ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي"(١).

وروى الإمام أحمد في مسنده مِن حَدِيثِ ابنِ بُرَيدَةَ عَن أَبِيهِ رضي اللهُ عنه قَالَ: "خَرَجَ بُرَيْدَةُ عِشَاءً، فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ -ﷺ-، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا صَوْتُ الرَّجُلِ يَقْرَأُ فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: أَتَقُولُهُ مُرَائِيًا؟ فَقَالَ بُرَيْدَةُ: أَتَقُولُهُ مُرَائِيًا يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: لَا، بَلْ مُؤْمِنٌ مُنِيبٌ، لَا، بَلْ مُؤْمِنٌ مُنِيبٌ، فَإِذَا الْأَشْعَرِيُّ يَقْرَأُ بِصَوْتٍ لَهُ فِي جَانِبِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: إِنَّ الْأَشْعَرِيَّ - أَوْ إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ - أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ"(٢).

وَكَانَ النَّبِيُّ -ﷺ-أكثر الناس إنابة إلى ربه، وكان من دعائه ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ-إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ،

---

١ -"سنن أبي داود" (برقم ١٥١٠). و"مسند الإمام أحمد" (٣/ ٤٥٢) (برقم ١٩٩٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح.

٢ -"مسند الإمام أحمد" (٣٨/ ٤٦) (برقم ٢٢٩٥٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح.

وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، والنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. أو لَا إِلَهَ غَيْرُكَ" (١) .

فالمنيبُ إلى الله بالرجوع إليه من العصيان، المكثِرُ من أنواعِ الطاعاتِ والقُرُبات هو الموفق لأنه يكون بذلك متأهبا للرحيل من هذه الدنيا والحساب بين يدي الله، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٣٠].

درجات الناس في إنابتهم لله تعالى :قال ابن القيم –رحمه الله– : "منهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، والحامل عليها: العلم والخشية والحذر.

ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات وقد حُبِّب إليه فعلها، فهو ساعٍ فيها بجهده، والحامل عليها: الرجاء ومطالعة الوعد والثواب، ومحبة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول، وأشرح صدورًا،

---

١ –"صحيح البخاري" (برقم ٦٣١٧)، و"صحيح مسلم" (برقم ٧٦٩).

وكلا القسمين مُنيب بالأمرين جميعًا، فخوف هؤلاء اندرج في رجائهم، فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم، فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومن الناس مُنيب إلى الله بالتضرُّع والدعاء والافتقار إليه، والرغبة وسؤاله الحاجات كلها، والحامل عليها: شهود الفضل والغنى والكرم والقدرة لله تعالى، فأنزلوا به حوائجهم، وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة، مع قيامهم بالأمر والنهي، ومنهم المنيب إلى الله عند الشدائد والضراء إنابة اضطرار، لا إنابة اختيار كحال الذين قال الله فيهم: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فأعلى أنواع الإنابات إنابة الروح بجُملتها إليه سبحانه لشدَّة المحبة الخالصة، والأعضاء كلها تبع للروح، فلما أنابت الروح بذاتها إليه، أنابت جميع القوى والجوارح، وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن الأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة، وانقادت للأمر راغبةً فيه مؤثرة إياه على غيره، وأناب الجسد بالأعمال الصالحة فرضها وسننها على أكمل الوجوه، فلم يبق من هذا العبد المنيب عِرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع إلى الحبيب الحق".(١)

---

١ – طريق الهجرتين وباب السعادتين – ط عالم الفوائد (١/ ٣٧٥).

عاشرا: الصبر على مشاق الطريق

اعلم-بارك الله فيك وزادك الله علما -: أن طريق الهداية والوصول إلى مرضات الله ليس طريقـًا مفروشـًا بالورود والرياحين، بل هو محفوف بالمكاره، مليء بالابتلاءات والمشاق التي تمحص منازل الصادقين.

ومن هنا يبرز الصبر على مشاق الطريق كأحد أعظم الأسباب العملية لنيل الهداية والثبات عليها، بل إنه الجسر الذي لا يمكن العبور بدونه إلى بر الأمان.

إن السير في رحلة الهدى يتطلب صبراً ثلاثيـًا: صبراً على طاعة الله وثقلها، وصبراً عن معاصي الله وجاذبيتها، وصبراً على أقدار الله المؤلمة وما يلقاه المؤمن من أذى الخلق أو تضييق الدنيا بسبب تمسكه بدينه.

وحين يتسلح العبد بالصبر، فإنه يهزم مانع "إيثار الحياة الدنيا" ويكسر حاجز "حب الرياسة والجاه"، ويتحمل مرارة "ضعف المعرفة" بالبحث والتعلم.

ولعظم هذا السبب وجلالة أثره، ربط الله سبحانه وتعالى بين الصبر ونيل الهداية والإمامة برباط وثيق في محكم كتابه فقال جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ووعد الصابرين على مجاهدة أنفسهم بالهداية التامة إلى سبل الرشاد فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وفي هذه المقدمة،

علم – بارك الله فيك: أن رأس تلك الأعمال الصبر والصلاة يقول المولى سبحانه وتعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]

يقول ابن القيم –رحمه الله–"الصبرُ إذا قام به العبد كما ينبغي، انقلبتْ المِحنةُ في حقِّه مِنْحةً، واستحالتِ البليَّة عطيَّة، وصار المكروهُ محبوبـًا، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يبْتلِهِ عطيَّة، وصار المكروهُ محبوبـًا، فإنَّ الله تعالى على العبدِ عبوديَّةً في الضَّراءِ، كما له عبوديَّةٌ في السَّرَّاءِ، وله عبوديَّةٌ عليه فيما يحبُّونه، والشأنُ في إعطاءِ العبوديَّةِ في المكارِهِ، ففيه تفاوتُ مراتبِ العبادِ، وبحسبِه كانتْ منازلُهم عند اللهِ تعالى"[1]

وصدق الله {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: ١٢٧] {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: ١٨]

وقال ابن عمر –رضي الله عنه–بالصبر أدكنا حسن العيش "

ولأهل السنة عند المصائب ثلاثة فنون: الصبر، الدعاء، وانتظار الفرج.

وقال الشاعر:

سقيناهموا كأسا سقونا بمثلها ولكننا كنا على الموت أصبرا

[1] – لا تحزن (ص: ٤١٨)

وقال -ﷺ- "حِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هذَا فَصَبَرَ" [1]

ببتَ للمجدِ والساعون قد جهد النفوسِ وألقوا دونهُ الأُزُرَا بلغُوا

وكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرُهمْ وعانق المجد مَنْ أوفى ومنْ صبرا

لا تحسبِ المجد تمراً أنتَ آكلُهُ لنْ تبلغ المجد حتى تلْعق الصَّبِرا

وقال الشاعر:

سقيناهموا كأسا سقونا بمثلها ولكننا كنا على الموت أصبرا

وقال -ﷺ- "حِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هذَا فَصَبَرَ" ( )

وقال سبحانه: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا }[النساء : ٦٦ – ٦٦].

يقول السعدي – رحمه الله –: فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد. فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر. فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر.

[1] – أخرجه البخاري في: ٥٧ كتاب فرض الخمس: ١٩ باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه

وأيضا فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات. اهـ.

سلمان الفارسي-رضي الله عنه- وصبره على طريق الهداية:

ابن عباس رضي الله عنهما فيقول: «حدثني سلمان حديثه من فيه، قال: كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من قرية يقال لها: جي، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل بي حبه إياي، حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، فاجتهدت في المجوسية، حتى كنت قاطن النار، أوقدها لا أتركها تخبو ساعة واحدة، وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل يوما، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فطالعها، فأمره فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: لا تحتبس علي، فإنك إن احتبست علي كنت أهم علي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري، فخرجت أريد ضيعته أسير إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم، ورغبت في دينهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فما برحت من عندهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي، ثم قلت لهم: من أبصركم بهذا الدين؟

قالوا: رجل بالشام، ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي، وقد شغلته عن عمله، قال أبي: بني، أين كنت؟

ألم أعهد إليك ما عهدت؟

قلت: إني مررت بناس يصلون في كنيسة لهم، فدخلت إليهم، فما زلت عندهم وهم يصلون حتى غربت الشمس.

قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، ثم حبسني في بيته، وبعثت إلى النصراني.

فقلت: إذا قدم إليكم ركب من الشام فأخبروني بهم، فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علما؟.

قالوا: الأسقف في الكنيسة، فجئته فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، فأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأصلي معك، قال: فادخل، فدخلت معه، وكان رجل سوء يأمر بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا به إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه، فلم يعط إنسانا منها شيئا، حتى جمع قلالا من ذهب وورق، فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات واجتمعت إليه النصارى

ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وما علمك بذلك؟

قلت لهم: فأنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، فدللتهم عليه فاستخرجوا ذهبا وورقا، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا، فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة، وكان ثم رجل آخر فجعلوه مكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا منه، فأحببته حبا لم أحبه شيئا قط، فما زلت معه زمانا ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان، إني قد كنت معك فأحببتك حبا لم أحبه شيئا قط، وقد حضرك ما ترى من أمر الله عز وجل، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟

قال: أي بني، والله ما أعلم أحدا على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا كثيرا مما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به، فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم ألبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني إليك، وأمرني أن ألحق بك، وقد حضر من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟

قال: يا بني، ما أعلم بقي أحد آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية بأرض الروم على مثل ما نحن عليه، فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كانت عندي بقيرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله عز وجل، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان فأوصاني إلى فلان، ثم أوصى فلان إلى فلان، ثم أوصاني فلان إليك، فإلى من توصي بي، وإلى من تأمرني؟

قال: والله ما أعلم أصبح على مثل ما نحن فيه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكن أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم -ﷺ-، يخرج بأرض العرب إلى أرض ذات نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بذلك البلاد فافعل، ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، مر بي نفر من كلب تجار، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟

قالوا: نعم، فأعطيتهم وحملوني معهم حتى إذا قدموا وادي القرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي، فكنت عنده فرأيت النخل، فرجوت البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي، فبينا أنا عنده قدم عليه ابن عم له من بني قريظة، وابتاعني منه، فحملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها عرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها، فبعث الله عز وجل رسوله -ﷺ-وأقام بمكة ما أقام ما أسمع له بذكر، مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني

لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: قاتل الله بني قيلة، والله إنهم ليجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي، فلما سمعتها أخذني الفرح، حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، ونزلت عن النخلة، وجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا يقول؟

فغضب سيدي، فلطمني لطمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا؟

أقبل على عملك، قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستفتيه عما قال، وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت إلى رسول الله -ﷺ- وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي صدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، وقربته إليه، فقال رسول الله -ﷺ-لأصحابه: كلوا، وأمسك هو فلم يأكل منه، فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئا، فتحول رسول الله -ﷺ- إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت له: رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله -ﷺ-منها وأمر أصحابه فأكلوا، وقلت في نفسي: هاتان ثنتان، ثم جئت رسول الله -ﷺ-ببقيع الغرقد قد اتبع جنازة رجل من الأنصار وهو جالس، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره: هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟

فلما رآني رسول الله -ﷺ-استدرت عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله -ﷺ-: تحول، فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله -ﷺ-أن يسمع ذلك أصحابه، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله -ﷺ-بدر، وأحد، ثم قال رسول الله -ﷺ-: كاتب يا سلمان، فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله -ﷺ-لأصحابه: أعينوا أخاكم، فأعانوني في النخل: الرجل بثلاثين، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر، والرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة نخلة، فقال لي رسول الله -ﷺ-: اذهب يا سلمان، فآذني حتى أكون أنا أضعها بيدي، ففقرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج رسول الله-ﷺ- معي إليها، فجعلت إليها، فجعلت أقرب له الودي ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، حتى فرغنا، والذي نفس سلمان بيده، ما مات منه ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي علي المال، فأتي رسول الله -ﷺ-بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟

فدعيت له، فقال: خذ هذه فأد بها ما عليك، فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله، مما علي؟

فقال: خذها، فإن الله عز وجل سيؤديها عنك، فوزنت له منها، فوالذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية، وأوفيتهم حقهم، وعتق سلمان وشهد مع رسول الله -ﷺ-الخندق، ثم لم يفته مشهد» رواه أحمد والطبراني بإسناد حسن.(١)

الحادي عشر: التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار

أخي الحبيب: إن محركات السلوك الإنساني في سيرهِ إلى الله تعالى تدور بين جناحي "الرغبة والرهبة" أو "الترغيب والترهيب".

ومن هذا المنطلق الإيماني، يبرز التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار كواحد من أعمق أسباب الهداية وأقوى بواعث الرشاد واليقين.

فالإنسان متى غفل عن غايته النهائية ومصيره الحتمي، وقع في أسر الغفلة واستسلم لموانع الهدى

إن تدبر العبد لما أعده الله في الجنة من النعيم المقيم، ولما توعد به في النار من العذاب الأليم، يصنع في النفس توازنـًا دقيقـًا يكسر به جمود الخطايا وجاذبية الشهوات.

فعندما يعلم المؤمن ما في الجنة من بهجة وحورٍ وقصور ورؤية لوجه الله الكريم، يهن عليه مانع "إيثار الحياة الدنيا"، وتنكسر في نفسه "شهوة الرياسة وحب الجاه" لعلمه بزوال ملك الدنيا مقارنة بملك الآخرة.

---

١ - «دلائل النبوة -إسماعيل الأصبهاني» (ص٤٣)

وبالمقابل، فإن الخوف من النار بزمجرتها وسلاسلها وسمومها، يقتلع من القلب كوامن "البغي، والتعصب، والظلم"، خوفاً من الردى والخسران المبين.

لقد وصف الله سبحانه وتعالى عباده المهتدين بأنهم يدعونه رغبًا ورهبًا، فقال جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

يقول الشيخ محمد المنجد-حفظه الله-" والجنة بلاد الأفراح، وسلوة الأحزان، ومحط رحال المؤمنين والنفس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهوّن عليها الصعاب، ويذلل لها ما في الطريق من عقبات ومشاق.

فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقة العمل، وهو يسير ويعلم بأنه إذا لم يثبت فستفوته جنة عرضها السنوات والأرض، ثم إن النفس تحتاج إلى ما يرفعها من الطين الأرضي ويجذبها إلى العالم العلوي.

وكان النبي -ﷺ-يستخدم ذكر الجنة في تثبيت أصحابه، ففي الحديث الحسن الصحيح مر رسول الله -ﷺ- بياسر وعمار وأم عمار وهم يؤذن في الله تعالى فقال لهم: (صبراً آل ياسر صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[1].

[1] – رواه الحاكم ٣٨٣/٣ ، وهو حديث حسن صحيح ، انظر تخريجه في فقه السيرة تحقيق الألباني ص١٠٣).

وكذلك كان -ﷺ- يقول للأنصار: (إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)[1] متفق عليه.

وكذلك من تأمل حال الفريقين في القبر، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، وسائر منازل الآخرة.

وها هو -ﷺ- يبث الثقة ويثبت الأقدام في غمرة الجهاد بالجنة وما أعد الله فيها لأصحابها، عن أبي بكر بن أبي موسى قال سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول قال رسول الله -ﷺ- إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف قال فقام رجلٌ رث الهيئة فقال يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله -ﷺ-} يقول هذا قال نعم قال فرجع إلى أصحابه فقال أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل"[2]

وفي غزوة بد قال رسول الله -ﷺ- قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، قال عُمير بن حُمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بَخٍ بَخْ، فقال رسول الله -ﷺ-ما يحملك من قولك: بخ بخ؟ قال: والله يا رسول الله، إِلَّا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنّك من أهلها، قال: فاخترج تمرات من قَرَنِه، فجعل يأكل منهن، ثمّ قال: لئن أنا حَيِيتُ حتّى آكل

---

[1] – أخرجه البخاري في: ٦٤ كتاب المغازي: ٥٦ باب غزوة الطائف.

[2] – أخرجه: مسلم ٤٥/٦ (١٩٠٢) (١٤٦).

تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التّمر، ثمّ قاتلهم حتّى قُتِل"[1]

وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على العباد وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد

فما زال يقاتل حتى قتل "[2]

ما الذي ثبت أقدام هؤلاء الأبطال؟

إنه من تأمل تلك الجنة ونعيمها وما أعد الله لأهلها من نعيم مقيم ... وها هو الإمام الأوزاعي لما دخل على عبد الله بن علي يقول " فدخلت والله ما تصورت في تلك اللحظة إلا عرش الرحمن بارزا والمنادي ينادي فريق في الجنة وفريق في السعير، فوالله ما رأيته أمامي إلا كذباب، والله ما دخلت بلاطه حتى بعت نفسي من لله جل وعلا .....

ويقول عائض القرني-حفظه الله-تحت عنون: " ذكر نفسك بجنة عرضها السماوات والأرض ": إنْ جعتَ في هذه الدارِ أو افتقرتَ أو حزنتَ أو مرضتَ

---

[1] – أخرجه أحمد (١٣٦/٣، رقم ١٢٤٢١)، ومسلم (١٥٠٩/٣، رقم ١٩٠١).

[2] – لا تحزن (ص ٤٢٨).

أو بخستَ حقـًا أو ذقت ظلمـًا فذكِّر نفسك بالنعيمِ، إنك إن اعتقدت هذه العقيدةَ وعملتَ لهذا المصيرِ، تحولتْ خسائرُك إلى أرباحٍ، وبلاياك إلى عطايا.

إن أعقلَ الناسِ همُ الذين يعملون للآخرةِ لأنها خيرٌ وأبقى، وإنَّ أحمق هذه الخليقة هم الذين يرون أنَّ هذه الدنيا هي قرارُهم ودارُهم ومنتهى أمانيهم، فتجدَهم أجزعَ الناسِ عند المصائبِ، وأندهم عندَ الحوادثِ، لأنهمْ لا يرون إلاَّ حياتهمْ الزهيدة الحقيرة، لا ينظرون إلاَّ إلى هذهِ الفانيةِ، لا يتفكرون في غيرِها ولا يعملون لسواها، فلا يريدون أن يعكّر لهم سرورُهم ولا يكدّر عليهم فرحُهم، ولو أنهمْ خلعوا حجاب الرانِ عن قلوبهِمْ، وغطاء الجهلِ عن عيونهِمْ لحدثوا أنفسهم بدارِ الخلدِ ونعيمِها ودورِها وقصورِها، ولسمعوا وأنصتوا لخطابِ الوحيِ في وصفِها، إنها واللهِ الدارُ التي تستحقُّ الاهتمام والكدَّ والجهْدَ.

هل تأملنا طويلاً وصف أهلِ الجنة بأنهم لا يمرضون ولا يحزنون ولا يموتون، ولا يفنى شبابُهم، ولا تبلى ثيابُهم، في غرفٍ يُرى ظاهرُها من باطنِها، وباطِنُها من ظاهرِها، فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، يسيرُ الراكبُ في شجرةٍ من أشجارِها مائة عامٍ لا يقطعُها، طول الخيمَّةِ فيها ستون ميلاً، أنهارُها مُطَّرِدةٌ قصورُها منيفةٌ، قطوفُها دانيةٌ، عيونُها جاريةٌ، سُرُرُها مرفوعةٌ، أكوابُها موضوعةٌ، نمارقُها مصفوفَةٌ، زرابيُّها مبثوثةٌ، تمَّ سروَرها، عظُم

حبورُها، فاح عرْفُها، عظُم وصْفُها، منتهى الأماني فيها، فأين عقولُنا لا تفكرْ؟!

ما لنا لا نتدبَّرْ؟!

إذا كان المصيرُ إلى هذه الدارِ؛ فلتخفَّ المصائبُ على المصابين، ولتَقَرَّ عيونْ المنكوبين، ولتفرح قلوبُ المعدمين.

فيها أيها المسحوقون بالفقرِ، المنهكون بالفاقةِ، المبتلون بالمصائب، اعملوا صالحـًا؛ لتسكنوا جنة اللهِ وتجاوروهُ تقدستْ أسماؤُه {سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} .[1]

الفصل السادس: وقفات إيمانية على طريق الهداية

إن هذه الوقفات الإيمانية ليست ترفـًا روحيـًا، بل هي ضرورات استراتيجية لصيانة القلب وتجديد الإيمان.

إنها اللحظات التي يقف فيها العبد مع نفسه وقفة محاسبة صادقة؛ ليتفقد معالم فطرته، ويزيل الران المتراكم على بصيرته بسبب الذنوب والجهل، ويعيد قراءة واقعه في ميزان الوحي المعصوم. متى ما صدق العبد في هذه الوقفات وتأمل في نعم الله عليه، وانكسر بين يدي الحي القيوم معترفـًا بتقصيره، انقشعت عنه حجب الغواية، وتبدلت ظلمة حيرته بنور التوفيق. وفي هذه المقدمة، نسلط

[1] -كتاب لا تحزن ،ص: (٤٢٨-٤٢٨).

الضوء على مفهوم الوقفات الإيمانية كأداة عملية لإحياء القلوب، وكيف تتحول هذه المحطات التأملية إلى نقطة تحول كبرى تنتشل الإنسان من مهالك الغفلة والموانع، لتسلك به صراط الهداية الرشيد وثبات الأقدام عليه حتى الممات

الوقفة الأولى: ليس كل من عرف الحق اهتدى إليه.

اعلم بارك الله فيك: أنه ليس كل من عرف طريق الحق اهتدى فكم من إنسان يعرف الحق ويعرف طريق الهداية ولكنه يؤثر الغواية وقد مر بنا أمثلة كثيرة تدل على ذلك المعنى

فإبليس كان يعرف الحق ويعرف طريقه ولكنه سلك طريق الغواية رغم معرفة بمغبة ذلك الطريق.

بلعام بن باعوراء كان يعرف الحق و يعرف اسم الله الأعظم الذي اذا دعي به أجاب و على الرغم من ذلك آثر طريق الغوية و الضلال على طريق الهداية و الرشاد قال –جل ذكره– {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ١٧٥-١٧٨]

يقول سيد قطب – رحمه الله– في قوله تعالى «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» ..

والله سبحانه يهدي من يجاهد ليهتدي، كما قال تعالى في السورة الأخرى: «وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» .... وكما قال: «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» .... وكما قال: «وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها، فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» ....

كذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه ويعرض عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان، ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها. وذلك كما جاء في الآية التالية في السياق: «وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها، أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» .. وكما قال تعالى: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً» .. وكما قال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ، وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً، إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها ..... »

ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية، والذي أثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً....

إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني، هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال..... وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها. ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى. ومع إرسال الرسل بالبينات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل.. ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره.

كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى. وأن يجري قدر الله كذلك بإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل وما أعطاه من أجهزة الرؤية والسمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون، وفي رسالات الرسل، الموحية بالهدى.

وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقوة سواه. وما كان الأمر ليكون هكذا إلا أن الله شاءه هكذا. وما كان شيء ليقع إلا أن يوقعه قدر الله. فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة إلا قدر الله ينشئ الأحداث.... وفي إطار هذه الحقيقة الكبيرة يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع له ما يقع من الهدى والضلال أيضـًا..

وهذا هو التصور الإسلامي الذي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع

بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الاحتجاج والجدل ! وفي هذا النص الذي يواجهنا هنا:«مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» .

يقرر أن من يهديه الله- وفق سنته التي صورناها في الفقرة السابقة- فهو المهتدي حقـًا، الواصل يقينـًا، الذي يعرف الطريق، ويسير على الصراط، ويصل إلى الفلاح في الآخرة.. وأن الذي يضله الله- وفق سنته تلك- فهو الخاسر الذي خسر كل شيء ولم يربح شيئـًا.. مهما ملك، ومهما أخذ فكل ذلك هباء أو هواء!

وإنه لذلك إذا نظرنا إليه من زاوية أن هذا الضال قد خسر نفسه. وماذا يأخذ وماذا يكسب من خسر نفسه؟!

ويؤيد ما ذهبنا إليه في فهم الآية السابقة وأخواتها نص الآية التالية: «وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ. لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (١)

الوقفة الثانية قد يكون الدليل أمام الإنسان، لكن الهوى يمنعه من اتباعه.

وتلك حقيقة مرة يرها الإنسان و يشاهدها فالمتأمل في حوال كثير ممن حادوا عن الصراط المستقيم يرى انهم ابصروا الحقيقة و قام الدليل الواضح و البرهان

---

١ – في ظلال القرآن (٣/ ١٤٠١)

الصدق عليها إلا انهم يعرضون عنها اتباعا للهوى و الشهوات قال الله تعالى {فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧ - ٣٩]

الوقفة الثالثة: الهداية فضل من الله، لكنها لا تعني ترك الأسباب.

عرفنا في أن من أنواع الهدية هداية التوفيق إلى الحق و إلى الطريق المستقيم و أن ذلك من خصائص الله تعالى و لا يقدر عليها نبي مرسل و لا ملك مقرب كما قال تعالى {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:٥٦]

ويقول السعدي – رحمه الله –يخبر تعالى أنك يا محمد –وغيرك من باب أولى–لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد اللّه سبحانه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله.

و لكن لا يعني ذلك أن يترك العبد الأخذ بأسباب الهدية و السعي في تحصيلها قال الله تعالى: {وجاهدوا بأموالِكُم وأنفُسِكم في سبيل الله} [التوبة: ٤١]

وقد ورد في الأثر: "جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم". (١) .

---

١ –(المفردات في غريب القرآن: مادة جهد، صـ ١٠١) (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤٠٣/٢).

ولا غنى للعبد عن مجاهدة نفسه التي بين جنبيه حتى تقيم ما أمرها الله ورسوله به وتحذر ما نهاها عنه؛ فالنفس مجبولة على حب الهوى؛ كما قال الجوزي – رحمه الله–: "النفس جبلت على حب الهوى فلذلك احتاجت إلى المجاهدة والمخالفة".

المجاهدة على فعل الواجبات والمخالفة عند رغبتها بالمحرمات، وصدق الشاعر حيث قال:

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أقمعت تاقت وإلا تسلت

فمن أسباب الهداية أن يجاهد المرء نفسه على الطاعات ة اجتناب المنهيات يقول تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩]

يقول ابن كثير – رحمه الله –{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا } يعني: الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين { لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } ، أي: لنُبَصرنهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحَواري، حدثنا عباس الهمداني أبو أحمد –من أهل عكا –في قول الله: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} قال: الذين يعملون بما يعلمون، يهديهم لما لا يعلمون.

قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه، وقال: ليس ينبغي لِمَنْ ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حين وافق ما في نفسه (١).

اعلم -بارك الله فيك -أن الله تعالى لو علم من صدق النية في طلب الهداية فان الله تعالى سيفتح لك أبوابها ما عليك ا نان تكون صادقا معه في طلب رضاه و السلوك إليه سبحانه و تعالى قال الله تعالى المشركين {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣]

قال أبو جعفر-رحمه الله-: فتأويل الآية إذًا: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرًا، لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبَره، حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لتولوا عن الله وعن رسوله، وهم معرضون عن الإيمان بما دلَّهم على صحته مواعظُ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به. (٢).

مثل: الأرض الصلدة التي يخالطها الماء، فإنه يمتنع النبات فيها لعدم قبولها، فإذا كان القلب قاسيا لم يقبل النصائح، وأبعد القلوب من الله: القلب القاسي،

---

١ – تفسير ابن كثير –(ج ٦ / ص ٢٩٦)

٢ – تفسير الطبري –(ج ١٣ / ص ٤٦٣).

وكذا إذا كان القلب مريضا، فلا قوة فيه ولا عزيمة، لما يؤثر فيه العلم .ومن صفاتهم كما وصفهم الله: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر: ٤٥]

الوقفة الخامسة: إذا فتح الله لك باب التوبة فلا تؤخر الدخول.

أخي القارئ: إذا فتح الله لك باب التوبة والهداية فسارع في الدخول واحذر من التسويف فربما يغلق الباب فلا يفتح فانتهز الفرصة وبادر قبل إن تبادر

عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - ، قال: " بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا، ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل "(١)

الوقفة السادسة

لا تحتقر ذنبًا صغيرًا، فقد يكون بداية طريق طويل.

أخي المسلم: احذر ثم احذر من أن تحتقر ذنبا من الذنوب و إن كان من الصغائر فان الشوكة رغم صغرها اذا جاءت في رجل الإنسان فإنه تعيقه عن السير و ربما توقفه عن مواصلته كذلك الصغائر التي يتهاون بها السالك إلى ربه عز وجل عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله - ﷺ - : " إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود،

---

١ - وأخرجه الترمذي (٢١٩٥)، والفريابي في "صفة المنافق" (١٠١)، وأبو عوانة ١/ ٥٠، وابن حبان (٦٧٠٤)، والذهبي في "السير" ١١/ ٢٤

وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه "[1]

يقول الشيخ علي القرني – حفظه الله– قصة رجل ارتد عن دينه

ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية، في حوادث سنة ثمان وسبعين ومائتين ما يلي –بتصرف– قال: وفيها توفي ابن عبد الرحيم –قبَّحه الله– هذا الشقي، كان من المجاهدين كثيراً في بلاد الروم، فلمَّا كان في بعض الغزوات، والمسلمون يحاصرون بلدة من بلاد الروم؛ إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، ما غضَّ بصره، والله يقول: {قُل لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِن اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور:٣٠] أتْبَع النَّظْرة النظرة، والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس، وكم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلابل والآلام والحسرات.

كان كمن أدخل في جحر يدا فأخطأ الأفعى ولاقى الأسْوَدَا

نظر فهَوِيَهَا، ثم راسلها؛ هل إليك من سبيل؟ فقالت: لا سبيل إلا أن تتنصر وتتبرأ من الإسلام، ومن محمد صلى الله وسلم على نبينا محمد فأجابها، وقال –ونعوذ بالله مما قال–: هو بريء من الإسلام، ومن محمد، وتنصَّرَ وصعد إليها.

[1] – «مسند أحمد» (٣٧/ ٤٦٧ ط الرسالة): «وأخرجه الطبراني في "الكبير" (٥٨٧٢)، وفي "الأوسط" (٧٣١٩)، وفي "الصغير" (٩٠٤)، والرامهرمزي في "الأمثال" (٦٧)، والبيهقي في "الشعب" (٧٢٦٧)، والبغوي في "شرح السنة" (٤٢٠٣)»

لا إله إلا الله! نعوذ بالله من الحَوَر بعد الكَوَر، نعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى، نعوذ بالله أن نردَّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله.

المعاصي بريد الكفر، وكم من معصية جرَّت أختها وأختها وأختها، حتى كانت النهاية أن سُلب إيمان العبد، وهذا مَثَلٌ من الأمثلة.

ما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتمَّ المسلمون لذلك غمّاً شديداً، وشق عليهم ذلك مشقة عظيمة، صَدْرٌ وَعَى القرآن يعود ليعبد الصُّلبان!

لما كان بعد فترة مرُّوا عليه، وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، عليه ذلّ الكفر وغبرته وقترته، فقالوا: يـ ابن عبد الرحيم ما فعل علمك؟ ما فعلت صلاتك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعل القرآن؟

فقال في حمأة ذل الكفر: أُنْسِيتُه، ما معي منه سوى آيتين -لكأنه المَعْنِيُ بهما- {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر:٢ - ٣] ولقد صار لي فيهم مال وولد؛ يعني: صار منهم: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران:٨].(١)

الوقفة السابعة ولا تحتقر طاعة صغيرة، فقد تكون سببًا في فتح أبواب الخير.

---

١ - دروس للشيخ علي القرني (٤/ ٤)

أيها السالك طريق الهداية إياك-: أن تحتقر طاعة من الطاعات فرب طاعة في عينك صغيره تكون سبب فلاحك و نجاحك في الدنيا و الآخرة.

عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - : " كان على الطريق غصن شجرة يؤذي الناس، فأماطها رجل فأدخل الجنة » (١)

عن النبي - ﷺ - قال: «بينا رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش» فقال الرجل: «لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له» قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرا؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر»» (٢)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : (بينما كلب يطيف بركية، كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها، فسقته فغفر لها به).(٣)

الوقفة الثامنة: لا تغتر بهدايتك؛ واسأل الله الثبات.

١ – أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥١، ومسلم (٢٢٦٣) (٨)

٢ – أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٣٦٣) و (٢٤٦٦) و (٦٠٠٩)، وفي "الأدب المفرد" (٣٧٨)، ومسلم (٢٢٤٤)، وأبو داود (٢٥٥٠)، وابن حبان (٥٤٤)،

٣ –أخرجه البخاري في: بَاب الْآبَارِ عَلَى الطُّرُقِ إِذَا لَمْ يُتَأَذَّ بِهَا (٢٤٦٦) ، وفِي بَابِ الْمَاءِ الَّذِي يُغْسَلُ بِهِ شَعَرُ الْإِنْسَانِ وَسُؤْرِ الْكِلَابِ وَمَمَرِّهَا فِي الْمَسْجِدِ (١٣٧) ، وفِي بَابِ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ (٦٠٠٩)، وفِي بَابِ ذكر بني إسرائيل (٣٤٦٧).

اخي المسلم : احذر ان تغتر بهدايتك بل كن على وجل و خوف دائما و سل ربك ان يثبتك على طريق الهداية فقد كان – ﷺ– يكثر في سجوده من قوله "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دينك".[1]

بل كان – ﷺ– يقول " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ "[2]

فأين نحن إذن من تكرار مثل هذا الأدعية خاصة في مثل هذا الزمن؟ أليس الله يقول في الحديث القدسي " يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ،"[3]

اطلبوا الهداية .... افعلوا أسبابها .... تجنبوا مواطن الشبهات ... ألحوا على الله تعالى بالهداية، إذا سألت أخي فاسأل الله، إذا استعنت فاستعن بالله، و ردد دائما {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} [البقرة: ٢٥٠] كرر في كل وقت { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨]

يقولُ ابنُ القيِّم: ((أجمع العارفون بالله على أنَّ الخِذْلان: أنْ يكلك اللهُ على نفسِك، ويُخلِّي بينك وبينها، والتوفيقُ أنْ لا يكِلك اللهُ إلى نفسِك.

---

[1] – أخرجه أحمد (٦/٢٩٤) انظر صحيح الجامع: ٤٨٠١، الصحيحة: ٢٠٩١

[2] – أخرجه ابن أبى شيبة (٦/٤٦، رقم ٢٩٣٥٨) ، وأحمد (٤/١٢٣ ، رقم ١٧١٥٥) ، وابن حبان (٥/٣١٠ ، رقم ١٩٧٤) ، انظر الصحيحة: ٣٢٢٨، صحيح موارد الظمآن: ٢٠٤٧

[3] – أخرجه مسلم (٤/١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧) ، وابن حبان (٢/٣٨٥ ، رقم ٦١٩) ، والحاكم (٤/٢٦٩ ، رقم ٧٦٠٦)

فالعبيدُ متقلِّبون بين توفيقهِ وخذلانِهِ، بلِ العبدُ في الساعةِ الواحدةِ ينالُ نصيبه منْ هذا وهذا، فيطيعهِ ويُرضيهِ، ويذكرُه ويشكرُه بتوفيقِه له، ثم يعصيهِ ويخالفُه، ويُسْخِطُه ويغفلُ عنه بخذلانِهِ له، فهو دائرٌ بين توفيقِه وخِذْلانِهِ.

*****

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين. وبعد هذه الرحلة مع الهداية وأسبابها وموانعها يتبين أن الهداية أعظم نعمة على الإنسان، وأن أعظم خسارة أن يعرف المرء الحق ثم يحرم اتباعه.

وقد تبين أن الهداية نوعان عظيمان:

هداية دلالة وإرشاد، وهداية توفيق وإعانة.

فالرسل والعلماء والدعاة يدلّون الناس على الخير، أما التوفيق والهداية إلى الحق والثبات عليه فمن الله وحده.

وقد جعل الله تعالى للهداية أسبابًا، منها:

الإيمان، والقرآن، والتقوى، والدعاء، والتوبة، ومجاهدة النفس، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، والعلم النافع، والصحبة الصالحة.

كما جعل لها موانع، من أخطرها:

الكبر، والحسد، والهوى، والشهوات، والإصرار على المعصية، والغفلة، والجهل، والتقليد الأعمى، وحب الدنيا، وحب الرياسة، والخوف من الناس، ووسوسة الشيطان، وصحبة السوء.

ومن أعظم الدروس التي ينبغي أن يحملها المسلم:

أن يسأل الله الهداية كل يوم، وأن يسأله الثبات عليها، وأن يخاف من زيغ القلب بعد الاستقامة.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

أهم نتائج البحث

الهداية أعظم نعمة من نعم الله على العبد.

القرآن الكريم كتاب هداية للناس.

الهداية نوعان: هداية بيان وإرشاد، وهداية توفيق وإعانة.

هداية التوفيق بيد الله تعالى.

سؤال الهداية مشروع في كل صلاة.

الإيمان من أعظم أسباب الهداية.

القرآن من أعظم وسائل الهداية.

التقوى سبب للانتفاع بالوحي.

التوبة تفتح باب الرجوع إلى الله.

مجاهدة النفس سبب للهداية.

الكبر من أخطر موانع قبول الحق.

الحسد قد يمنع الإنسان من قبول الحق.

اتباع الهوى من أعظم أسباب الضلال.

الشهوات قد تحول بين الإنسان وبين الهداية.

الإصرار على المعصية من أسباب قسوة القلب والزيغ.

الغفلة تحرم القلب الانتفاع بالموعظة.

الجهل من أسباب الضلال.

التقليد الأعمى قد يمنع الإنسان من اتباع الحق.

حب الدنيا والجاه قد يحجبان الإنسان عن الهدى.

الصحبة الصالحة من أسباب الثبات.

صحبة السوء من أسباب الانحراف.

الإنسان محتاج إلى الهداية في كل لحظة.

المحافظة على الهداية تحتاج إلى مجاهدة ودعاء.

أعظم ما ينبغي أن يخافه المؤمن هو زيغ القلب بعد الهداية.

من أعظم الأدعية: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الشُّكْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، عَلَانِيَتُهُ وَسِرُّهُ. لَكَ الْحَمْدُ على نِعَمِكَ العِظَامِ، وَآلَائِكَ الْجِسَامِ، وَأَنْ هَدَيْتَنَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؛ أَنْ تَهْدِيَ قُلُوبَنَا، وَأَنْ تُثَبِّتَ أَقْدَامَنَا على صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ.

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ النِّفَاقِ، وَأَعْمَالَنَا مِنَ الرِّيَاءِ، وَأَلْسِنَتَنَا مِنَ الْكَذِبِ، وَأَعْيُنَنَا مِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الضَّلَالِ بَعْدَ الْهُدَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ سُوءِ الْأَقْدَارِ.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا على ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ. وَاصْرِفْ عَنَّا كُلَّ مَانِعٍ يَمْنَعُنَا مِنْ طَاعَتِكَ، وَكُلَّ حِجَابٍ يَحْجُبُنَا عَنْ نُورِ مَعْرِفَتِكَ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ. وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

كان الانتهاء من كتابه ظهر يوم السبت الموافق ٩ من ربيع الأول ١٤٤٨ هـ، الموافق٢٢ أغسطس ٢٠٢٦ م

العبد الفقير إلى هداية ربه ومولاه

الشيخ السيد مراد سلامة

إمام وخطيب ومدرس بالأوقاف المصرية

الإنتاج العلمي للمؤلف

الإنتاج العلمي للمؤلف / الشيخ السيد مراد سلامة

القسم الأول. الردود والفرق والمذاهب والاعتقاد

١-تَبصرة الموحدين بخيانات ومخططات الشيعة على الإسلام والمسلمين.

٢-التسعون العلية من أسماء الذات الإلهية.

٣-طقوس وشعائر وأعياد شيعية في ميزان الشريعة الإسلامية.

٤-فتاوى الأئمة الأعلام في بيان حقيقة وعقيدة الرافضة اللئام.

٥-فكر المؤامرة عقيدة وحقيقة لا خيال.

٦-المباهلة في الإسلام.

٧-الشيطان كأنك تراه.

القسم الثاني: كتب الحديث الشريف والسنّة والآثار:

٨-الإذاعة بذكر أربعين حديثا في السمع والطاعة.

٩-الأربعون البرزخية.

١٠-الأربعون البلدانِية.

١١-الأربعون التيسيرية من سنة خير البرية.

١٢-الأربعون الرمضانية من أحاديث خير البرية.

١٣-الأربعون السماوية من أحاديث صفوة البشرية.

١٤-الأربعون الكتابية.

١٥-الأربعون النبوية في حرمة الدماء البشرية.

١٦-الأربعون النبوية لمغفرة خطايا الإنسانية.

١٧-الأربعون النورانية في وصف صفوة البشرية.

١٨-البدر الأتم في ذكر أربعين حديثا قال فيها الصحابة الله ورسوله أعلم.

١٩-الدر المختار من استفسارات الصحابة عن غريب قول النبي المختار.

٢٠-الدر المختار من الأحاديث الواردة في البحار.

٢١-فتح الجليل بذكر الأحاديث التي ذكر فيها النخيل.

٢٢-فتح الكبير المتعال بالأحاديث الطوال.

٢٣-متن الأربعين الشتوية من أحاديث خير البرية.

٢٤-متن الأربعين المرادية إياكم واختراق المنهيات.

٢٥-متن الأربعين من أهوال يوم الدين.

٢٦-الأحاديث الواردة في فضائل سيناء.

٢٧-الأحاديث والآثار الواردة في محبة الوطن عند الشعراء.

٢٨-الأحاديث النبوية في أحكام الأذان وآدابه.

٢٩-الأحاديث والدروس المستفادة من الهجرة النبوية.

٣٠-نظم السبائك بذكر من تصلي عليهم ومن تلعنهم الملائك.

القسم الثالث: كتب الخطب والمواعظ والدروس المنبرية:

٣١-إرواء المشتاق من خطب الأخلاق.

٣٢-الخطب المرادية عن شمائل خير البرية.

٣٣-الخطب والمواعظ الباهرة في ذكر الموت وأهوال المقبرة.

٣٤-الدرر البهية من المقدمات المنبرية.

٣٥-العشريات المرادية من الخطب المنبرية.

٣٦-المسك الأذفر للدرس والموعظة والمنبر.

٣٧-موسوعة القصص المنبرية -الجزء الأول.

٣٨-موسوعة القصص المنبرية -الجزء الثاني.

٣٩-النسمات المباركات من مقدمات المناسبات.

٤٠-تحفة الواعظ للخطب والمواعظ (ألف قصة وقصة).

القسم الرابع قسم الخطب الأخلاقية والمعاملات

٤١-كتب ومجالس شهر رمضان المبارك وصلاة التراويح.

٤٢-إشراق المصابيح لجلسة صلاة التراويح.

٤٣-الأماليح لجلسة صلاة التراويح.

٤٤-ري الظمآن من دروس العصر في رمضان.

٤٥-فيض الرحمن دروس وخواطر شهر رمضان.

٤٦-القصص المليح لجلسة صلاة التراويح.

٤٧-الكنوز الرمضانية.

٤٨-اللآلئ الحسان من أوصاف شهر رمضان.

٤٩-مشكاة المصابيح لجلسة صلاة التراويح.

٥٠-المواعظ العصرية للدروس الرمضانية.

٥١-نفح الريح لجلسة صلاة التراويح.

القسم الخامس : الفتاوى والأحكام الفقهية والشرعية:

٥٢-أَرِيجُ العطر في بيان أحكام زكاة الفطر.

٥٣-تحفة الأنام بفتاوى شهر رجب الحرام.

٥٤-تحفة الملهوف بأحاديث الخسوف والكسوف.

٥٥-تشنيف الآذان بما ورد في فضل وآداب وأحكام الأذان.

٥٦-الدرر البهية من آداب وأحكام التحية.

٥٧-الدرر البهية من الفتاوى الرمضانية.

٥٨-الدرر السنية من فتاوى الأضحية (١٣٠ سؤال وجواب).

٥٩-قرة العينين بفتاوى أبي همام بالحرمين.

٦٠-المشكاة في بيان آداب وأحكام اصطحاب الأطفال إلى الصلاة.

٦١-رسالة عاجلة إلى من فاته الحج.

٦٢-مخالفات في الطرق والمواصلات رؤية شرعية.

٦٣-أسباب غلاء الأسعار وقلة البركة من منظور الشرع.

القسم السادس: السيرة النبوية والشمائل والخصائص

٦٤-تحفة الداعية والإمام بدروس سيرة خير الأنام.

٦٥-رد القوي المتين على من سب أو عاب النبي الأمين صلى الله عليه وسلم.

٦٦-السراج الوهاج من عبر ودروس الإسراء والمعراج.

٦٧-العناية الربانية بصفوة البشرية.

٦٨-الفتح الرباني لمنهج الإمام الرمضاني.

٦٩-فتح رب البرية من خطب ودروس الهجرة النبوية.

٧٠-الكوكب الوهاج من خطب الإسراء و المعراج.

٧١-مؤذنو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٧٢-النسوة يسألن والنبي يجيب.

القسم السابع موسوعة "حرص السلف وتفريط الخلف"

٧٣-حرص السلف على اغتنام الأوقات وتفريط الخلف.

٧٤-حرص السلف على إقامة العدل في الأرض وتفريط الخلف.

٧٥-حرص السلف على الاتباع وتفريط الخلف.

٧٦-حرص السلف على الزهد في الدنيا وإفراط الخلف في الحرص عليها.

٧٧-حرص السلف على الصلاة وتفريط الخلف.

٧٨-حرص السلف على العمل والكسب الحلال وتفريط الخلف.

٧٩-حرص السلف على الغيرة على دينهم وأعراضهم وتفريط الخلف.

٨٠-حرص السلف على القرآن الكريم تلاوة وعملا وتفريط الخلف.

٨١-حرص السلف على المحاسبة وتفريط الخلف.

٨٢-حرص السلف على النصح لولاة الأمور وتفريط الخلف.

٨٣-حرص السلف على بر الوالدين وتفريط الخلف.

٨٤-حرص السلف على تقوية روابط الأخوة والحب في الله وتفريط الخلف.

٨٥-حرص السلف على طلب العلم وتعليمه وتفريط الخلف.

٨٦-حرص السلف على قيام الليل وتفريط الخلف.

القسم الثامن: التراجم والسير والتاريخ الإسلامي

٨٧-أنبياء وعلماء وقضاة خلف القضبان.

٨٨-تذكرة النبلاء بفضائل سيناء.

٨٩-ريب المنون في ذكر من مات بالطاعون من الصحابة والعلماء والقضاة والخلفاء والأمراء والشعراء.

٩٠-صور من وصايا الأنبياء والخلفاء والعلماء والآباء والصحابة والتابعين عند موت.

٩١-فتح الكريم الوهاب بتراجم العلماء العزاب.

٩٢-صور مشرقة من الثبات على الإيمان للعبرة والعظة

٩٣-صور مشرقة من ثبات الصالحين ومواقفهم تاريخياً.

٩٤-مواقف حاسمة من تاريخ المرأة المسلمة.

٩٥-الفائزون بدعاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

القسم التاسع: التربية والأسرة والشباب والتربية الجنسية:

٩٦-أخطاؤنا في تربية الأبناء.

٩٧-أي بنيتي تلك هي وصيتي.

٩٨-التربية الجنسية في الإسلام.

٩٩-الدرر الغراء من وصايا الآباء للأبناء.

١٠٠-الفتاوى العصرية في المسائل الجنسية.

١٠١-صور مشرقة من حياة الأطفال.

القسم العاشر: القضايا المعاصرة، الأخلاق، والمجتمع:

١٠٢-أخطاء ومخالفات في الطرق والمواصلات رؤية شرعية

١٠٣-أسباب غلاء الأسعار وقلة البركة من منظور الشرع.

١٠٤-تذكرة النبلاء بمحبة الوطن عند الشعراء.

١٠٥الدر المنضود في الإصلاح والتغيير المنشود.

١٠٦-درر الحكم، والأمثال لرسائل الجوال.

١٠٧-فيض العزيز الغفار في بيان حقوق وأحكام الجار.

١٠٨-اللامبالاة في حياة الفرد والأسرة و المجتمع (المظاهر -الأسباب-الآثار-العلاج).

١٠٩مفاتيح النجاح العشرة.

١١٠-نبع الإيمان بخطب محبة وحقوق الأوطان.

١١١-القول الجلي في مخالفات شرعية يقع فيها رواد التواصل الاجتماعي.

القسم الحادي عشر النوازل، مآسي الأمة، وقضية فلسطين

١١٢-بيت المقدس بين وحشية الغاصبين ورحمة الفاتحين.

١١٣-مجازر في تاريخ الأمة الإسلامية (دماء وأشلاء .. عويل وبكاء).

١١٤-مجازر في تاريخ غزة.

١١٥-مجازر من تاريخ سوريا دماء وأشلاء.

١١٦-هزة غزة (هزة إيمان واعتقاد وعزة).

القسم الثاني عشر سلسلة كتب الموانع:

١١٧-موانع طلب العلم.

١١٨-موانع الهداية وأسبابها.

****

المراجع[١]

١-إتحاف السادة المتقين محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض الزَّبيدي

٢-إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.

٣-أصول الفقه محمد بن مفلح ، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الحنبلي

٤-إعلام الموقعين لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.

٥-إغاثة اللهفان لابن القيم الجوزية

٦-بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني

٧-تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد البغدادي.

٨-تفسير ابن كثير لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي.

٩-تفسير أبي السعود أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى

[١] -المراجع مرتبة ترتيبا أبجديا

١٠-تفسير أضواء البيان محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي

١١-تفسير الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي

١٢-تفسير التحرير والتنوير محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي

١٣-تفسير التستري أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري

١٤-تفسير الثعالبي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي

١٥-تفسير الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي

١٦-تفسير السعدي لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي.

١٧-تفسير الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري

١٨-تيسير التفسير إبراهيم القطان.

١٩-تفسير المحرر الوجيز أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

٢٠-تفسير بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز مجد الدين أبو طاهر محمد بن

٢١-تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

٢٣-تفسير في ظلال القرآن سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي

٢٤-جامع الأحاديث لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي.

٢٥-جامع العلوم والحكم لابن رجب

٢٦-حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني.

٢٧-دروس للشيخ على عبد الخالق القرني

٢٨-دلائل النبوة -إسماعيل الأصبهاني

٢٩-ذم الكلام لأبي إسماعيل الأنصاري الهروي

٣٠-ذم الهوى، لابن الجوزي

٣١-رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا

٣٢-الرسالة القشيرية عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري

٣٣-الروض الأنف أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي

٣٤-وضة المحبين لابن القيم الجوزية

٣٥-زاد المسير لابن الجوزي

٣٦-زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية

٣٧-سنن الدارمي أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بالدارمي

٣٨-السنة لابن أبي عاصم أ أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني

٣٩-سنن ابن ماجه لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد

٤٠-سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني.

٤١-سنن الترمذي لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى.

٤٢-سير أعلام النبلاء شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

٤٣-سيرة ابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري

٤٤-السيرة النبوية لابن كثير

٤٥-شرح النووي على مسلم أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي

٤٦-شعب الإيمان لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي.

٤٧-صحيح ابن حبان محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي.

٤٨-صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي

صحيح الجامع لمحمد بن ناصر الدين الألباني

٤٩-صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري

٥٠-صفة الصفوة جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي

٥٢- طريق الهجرتين وباب السعادتين - ط عالم الفوائد لابن القيم الجوزية

٥٣-العظمة لابي الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني

٥٤-عيون الأثر محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس.

٥٥-فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

٥٦-فيض القدير زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي.

٥٧-قوت المغتذي على جامع الترمذي عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي

٥٨-لا تحزن للدكتور عائض القرني

٥٩-الدر المنثور عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي

٦٠-مجموع الفتاوى لابن تيمية

٦١-مجموعة القصائد الزهديات أبو محمد عبد العزيز السلمان

٦٢-محاسبة النفس لابن أبي الدنيا

٦٣-محاضرات الشيخ الجزائري.أبو بكر الجزائري

٦٤-مدارج السالكين لابن القيم الجوزية.

٦٥-مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح علي بن محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري

٦٦-مستدرك الحاكم لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري.

٦٧-مسند أحمد لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني.
٦٨-مسند البزار لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي
٦٩-المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة
٧٠-مفتاح دار السعادة لابن القيم.
٧١-المفردات في غريب القرآن
٧٢-موارد الظمآن أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي
٧٣-النكت والعيون أبو الحسن علي بن محمد بن محمد ، الشهير بالماوردي.
٧٤-الوابل الصيب لابن القيم الجوزية

الفهرس

المقدمة.....٣
الفصل الأول: تعريف الهداية.....٧
الفصل الثاني من الهادي وما أنواع الهداية؟.....١٦
الفصل الثالث الهداية إلى الصراط المستقيم وصفة الصراط.....٣٧
الفصل الرابع: موانع الهداية.....٤٤
ما هي الموانع.....٤٤
أولا: ضعف المعرفة.....٤٥

ثانيا: ومن موانع الهداية عدم الأهلية.....٤٨

ثالثا: الحسد والكبر.....٥١

رابعا-ومن موانع الهداية: مانع الرياسة.....٥٧

خامسا: مانع الشهوة والمال.....٦٤

سادسا: ومن موانع الهداية: مانع محبة الأهل والأقارب والعشيرة، الوطن...٧٢

سابعا: مانع الألفة والعادة والمنشأ.....٧٩

تاسعا: العصبية والتعصب والجمود الفكري.....٨٤

عاشرا: الكذب على الله تعالى على رسوله - ﷺ-.....٩٠

الحادي عشر: استحباب الحياة الدنيا على الآخرة.....٩٣

الثاني عشر: مولاة اليهود والنصارى.....٩٩

الثالث عشر: الرياء.....١٠٤

الرابع عشر: الشهوات.....١٠٦

الخامس: عشر الجهل.....١١٢

السادس عشر: البغي.....١١٨

السابع عشر: الجدل.....١٢٠

الفصل الخامس: أسباب الهداية.....١٢٥

السبب الأول: القرآن الكريم.....٢٢٥

السبب الثاني: الاعتصام بالسنة: سنة المصطفى- ﷺ-.....١٣٢

ثالثا: الاعتصام بالله.....١٣٧

رابعا: كثرة الدعاء والابتهال للحي القيوم.....١٤٤

خامسا: المجاهدة بصدق.....١٥٤

سادسا: من أسباب الهداية التدبر في آيات الكون.....١٦٧

ثامنا: مجالسة الصالحين وزيارتهم.....١٨٨

تاسعا: الإنابة والتوبة والرجوع إلى الله جل جلاله.....١٩١

عاشرا: الصبر على مشاق الطريق.....١٩٦

الحادي عشر: التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار.....٢٠٤

الفصل السادس: وقفات إيمانية على طريق الهداية.....٢١٠

الخاتمة.....٢٢٣

الإنتاج العلمي للمؤلف.....٢٢٧

المراجع ٢٣٣

الفهرس.....٢٣٧